القسم الأول

الأدبان الروسي السوفييتي والعربي
حتى أواسط الثلاثينات من القرن العشرين

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مكسيم غوركي

ـ مؤسس الواقعية الاشتراكية

في الأدب الروسي السوفييتي

هيأ التحرك الاجتماعي والسياسي للواقعية النقدية في الأدب الروسي بين 1880 ـ 1890 الظروف المناسبة للبدء في مرحلة جديدة من أجل الانتقال من الواقعية النقدية إلى الواقعية الاشتراكية.

إن ظهور هذه المدرسة الأدبية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتكون الأسس الاجتماعية الموضوعية للمستقبل الإنساني الاشتراكي، وتعتبر نتاجات مكسيم غوركي الأولية خير مثالٍ على هذه المرحلة وسماتها الأساسية، ولقد أشار الباحث الروسي والعلامة في مجال علم الأدب س. م. بتروف إلى أهمية نتاجات غوركي، حيث قال: «لم يتمكن أي كاتب كان من كتاب العالم الواقعيين كما تمكن مكسيم غوركي من أن يعكس وبأسلوب أدبي رائع، وبوضوح كامل مسألة الصراع والتناقض بين شتى الطبقات في المجتمع، ولم يستطع أحد أن يتفهم بذلك العمق مسألة الإنسان والإنسانية[6]».

إن الواقعية الاشتراكية تعتمد، وقبل أي شيء آخر، على أسس الواقعية النقدية، وما يُميِّز كُتَّاب هذه المدرسة أنهم قد فقدوا الثقة في النتائج التي توصلت إليها الثورة البورجوازية، ونظرتهم السلبية إلى النظام الرأسمالي الذي تكون في بعض البلدان، ويتكون في بعضها الآخر، ومن هؤلاء الكتاب كان

[6] بتروف س. م، مسائل الواقعية في الأدب الفني. موسكو 1962. ص167.

obeikandi.com

ستندال، وبلزاك، في فرنسا وديكنز، في بريطانيا وغيرهم الكثير ممن رسموا في نتاجاتهم الأدبية اللَّوحة الكاملة المتكاملة للمجتمع البورجوازي مبينين نواقصه وعيوبه، وأماكن الضَّعف فيه، أما الكاتب الروسي العبقري غوغول فقد رسم لوحة الأزمة العامة للنظام الإقطاعي في روسيا: السرقة، الاستغلال، الاضطهاد ومصائب الضعفاء العاجزين عن فعل أية ثورة، أما الواقعية النقدية في النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تُعنَ، ولا بأيِّ شكلٍ، غياب المُثل الإيجابيَّة والأبطال الإيجابيين عند الكُتَّاب: وتنحصرُ قوَّةَ نقدهم في متانته وصحته، وهو يمتاز بسماتٍ إنسانيةٍ مِلؤها الأخلاق المثلى والأمل في المستقبل الأفضل، «وقد بين مكسيم غوركي في عدة أعمال النهاية الحتمية للرأسمالية، وانهيار عالم الجشع المالي، وسقوط القيم الروحية والأخلاقية التي أوجدها المجتمع البورجوازي، ولقد رأى مكسيم غوركي أن من إحدى مهامه أن يسجل مرثاة لتلك الطبقة، التي تخرج من الساحة، أي البرجوازية تدريجياً[7]».

في النِّصف الثاني من القرن العشرين يُلاحظ في القرب، وبشكلٍ أساسي، نوع من الاغتراب بالنسبة للذات، وفقدان مقوماتها، وفقدان الإرادة الصلبة لمقاومة الوسط البرجوازي ويتضح هذا بشكلٍ كاملٍ عند الكُتَّاب تيكيريه، وفلوبير، ويمثِّل هذا الاغتراب في الأدب الروسي، عند كل من تورغنيف، وتولستوي، ودوستويفسكي، وبمقابل هذا كان التأكيد على مُثُل الإنسانية العالية، والنضال من أجل المثل الأخلاقية الإنسانية، ومن أحد أسباب انهيار الرأسمالية يعتبر المصير المأساوي للمثقفين البرجوازيين القدامى، وبين مكسيم غوركي هذا جيداً في روايته الملحمية «حياة كليم سامغين»، حيث يبين فقر وعدمية الفلسفة الرأسمالية التي تُغير بشكلٍ أساسي عن الفردية الذَّاتية، المعادية للشَّعب، وانعدام المشاعر الأخلاقية، والانحطاط في الذَّوق، والتَّدهور الإنساني، ولهذا فإن كل إنسان جيد في البرجوازية القديمة، سوف يتحول إلى جانب

[7] نفس المرجع السابق ص168.

obeikandl.com

الثورة[8].

إن النظرة الشاملة والواسعة للواقع الاجتماعي، والتحليل الفلسفي العميق، وشرح هذه المسائل للشعب مع الإحساس بشعور «المهانين والمضطهدين» جعل هؤلاء الكتاب وفي طليعتهم ممثلو الأدب الروسي في قمة الواقعية في نهاية القرن التاسع عشر ـ بداية القرن العشرين.

ويعتبر الأدب الواقعي الروسي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مرحلةً جديدةً في تطور الواقعية الروسية، وتُحدَّد هذه الواقعية بنتاج أولئك الكتاب أمثال: غارشين، كورولينكو، تشيخوف، والمرحلة الأولى من نتاج مكسيم غوركي.

إن أدب الواقعية النقدية هو ثمرة، أو قمة الأدب التقدمي العالمي، ويكفي ذكر الكتاب العظام في أوربا أمثال: إميل زولا ـ أنا تولي فرانس، فيرهارن ، برنارد شو، وغيرهم من الذين كانوا في نهاية القرن التاسع عشر مقتنعين كلياً بضرورة البحث عن الأشكال الجديدة لعكس الحياة العملية بشكل واقعي كلياً.

في ذلك الوقت بالذات، كانت قد تمت بعض المحاولات لإعطاء تحديد كامل للمبادئ الأساسية لهذا الاتجاه الجديد، ولقد كتب غ. ف بليخانوف عام 1885 في مقالة عن نتاج أحد الكتاب الشعبيين (ن. ي. ناؤوموف)، سيظهر في روسيا العديد من الكُتَّاب، من ذوي الاتجاه الجديد الذين يطمحون عن وعي للدراسة والتصوير الفني للجوانب الإيجابية[9]).

كما أشار الناقد، لوناتشارسكي في إحدى مقالاته: (مهمات النتاج الأدبي الاجتماعي الديمقراطي) إلى أن روسيا التي هبت للنضال من أجل استقلالها وتحررها تحتاج إلى فنان يلتزم بقضايا البروليتاريا، ويكون بإمكانه أن

---

[8] بتروف س. م، مسائل الواقعية في الأدب الفني. موسكو 1962. ص243.

[9] بليخانوف غ. ف. الأدب وعلم الجمال. موسكو 1958 الجزء 2، ص184.

obeikandi.com

يعكس حياة العمال، ولكن لزاماً عليه أن لا يهتم بالفقر، بقدر ما عليه أن يهتم بالناحية النضالية من حياة البروليتاريا[10].

وهكذا ترتبط ولادة الواقعية الاشتراكية في روسيا عضوياً بالنضال الثوري للطبقة العاملة، وبشكل أساسي في انتشار الأفكار الاشتراكية والأيديولوجية الاشتراكية في معمعان هذا النضال، وقد ظهرت ضرورة حياتية مُلحَّة في الفن إلى عكس هذا النضال للبروليتاريا ضِد مُستغليهم مباشرة.

ولذلك نجد أن تكون النتاجات الأولى في الواقعية الاشتراكية في روسيا ليست ظاهرة عابرة أو مُجرد مُصادفة، إذ أنه في نهاية القرن التاسع عشر أصبحت روسيا واحدة من المراكز الأساسية للحركة الثورية العالمية، وبرزت في روسيا الطبقة العاملة الثورية التي يقودها الحزب الثوري المنظم، في هذه الأثناء وحتى هذا الوقت بالذات، كانت روسيا قد أنجبت الكُتَّاب والشعراء الواقعيين العظام أمثال: بوشكين، غوغول[11]، تورغينيف، دوستويفسكي، تولستوي، تشيخوف، وغيرهم. إذن فقد هيأ الجو الأدبي لظهور المدرسة الأدبية الجديدة.

كانت الواقعية النقدية التي اغتنت مع الزَّمن بالنظريات العلمية، والأيديولوجية العلمية، قد أصبحت ذات أهمية خاصة لإبراز البطل الإيجابي، ممثل الطبقة العاملة.

وبفضل مكسيم غوركي نجد أنه ولأول مرة في تاريخ الأدب العالمي تم تصوير الطبقة العاملة تصويراً فنياً في الروايات الأدبية الخالدة، وإظهار السمات الإنسانية الرائعة والخيرة والأكثر إنسانية عند الإنسان العامل، والتي تتضح من خلال النضال الثوري ضد العالم القديم، وكانت هذه هي ميزات الإنسان الواقعي المناضل من أجل التغيير الثوري.

---

[10] لوناتشاركسي أ. ف. المؤلفات الكاملة، الجزء 7، موسكو 1966، ص161.

[11] يعتبر غوغول من أهم كتاب الواقعية النقدية، وضمت القصيدة «المعطف» بمثابة حجر الزاوية للواقعية النقدية.

obeikandl.com

وهكذا نرى أن العديد من الكتَّاب العظام في البلدان الغربية وروسيا أمثال: زولا، فرانس، لونديه، ويلز، كورولينكو، غارشين، ميخائيلوفسكي، قد أدركوا جيداً أهمية الأيديولوجية الاشتراكية، ولكن في نتاج مكسيم غوركي وحده في بداية القرن العشرين وجدت هذه الأفكار انعكاساً طبيعياً لها، وتعبيراً صادقاً، وكذلك في نتاجات الكتاب الذين ابتدأوا بالتجمع حول غوركي، وقد كتب اليسبرغ في هذا المجال قائلاً: إن الفكرة الهامة والجوهرية، وأهم القضايا الجوهرية والأساسية، بل اللحظة الحاسمة الجديدة التي قدمتها الواقعية الاشتراكية، كانت تلك التي برزت منذ بداية ولادة الأدب الواقعي الاشتراكي والتي عبرت عن عظمة نمو الشخصية الذاتية، والاعتراف بدور الذات والفرد من خلال الجمهور الشعبي، ويعتبر غوركي المجدد الأول في عكس الميزات الخصوصية الذاتية لمختلف ممثلي الشعب.

لقد كان الأدب الاشتراكي بمثابة الدفعة والانطلاقة القوية للتحول الثوري في الحياة. وقد جدد ف. إ. لينين في مقالته «المنطقة الحربية والأدب الحربي» (1905) أبعاد هذا الأدب التقدمي وأهميته والمهام الملقاة على عاتقه، كما أشار إلى أنه على الاشتراكي البروليتاري أن يرفع شعار حزبية الأدب[12]، ويجب على الأدب أن يسخر لحلِّ القضايا الاجتماعية العامة والأدب بالنسبة للبروليتاريا من غير الممكن أن يكون في أي وقتٍ من الأوقات أداة قهر إن هذا سيكون ـ كتب ف. إ. لينين ـ أدباً حُراً، يعكس الكلمة الأخيرة للفكر الثوري الإنساني بالتجربة والعمل الفعال للبروليتاريا الاشتراكية، والأدب الذي يُكوِّن وباستمرار العلاقة المتبادلة بين تجربة الماضي (الاشتراكية العلمية..[13] وتجربة الحاضر (النضال المعاصر للرفاق العمال).

وبالتالي فإن أسس علم الجمال في الواقعية الاشتراكية ترتكز على التصوير في

---

[12] لينين، المؤلفات الكاملة، الجزء 12، ص100.

[13] نفس المرجع السابق ص104.

obeikandl.com

الإنتاج الفني للتجربة والعمل الحي للبروليتاريا الاشتراكية، كما وصفها ف. إ. لينين في بداية القرن العشرين.

إن ظهور الواقعية الاشتراكية في روسيا، - على هذا الشكل - كان يعتمد على وقائع تاريخية، ويقوم على أسس تاريخية إيجابية، ولكن لا يجوز القول إن هذا قد تمَّ بطريقة ميكانيكية، عن طريق توحيد أوتوماتيكي بين الواقعية النقدية مع النظرية الجديدة، إن الواقعية النقدية قد هيأت الظروف المناسبة، وأحدثت تغيرات نوعية على المذهب الواقعي في تصوير الحياة حسب المعطيات الجديدة.

ولقد أخذت الواقعية الاشتراكية من الواقعية النقدية كل ما هو جيد من المنجزات الفنية والأفكار الأدبية الرائعة التي عكسها الكتاب في نتاجاتهم. كما قامت الرومانسية بدورٍ كبيرٍ في توضيح معالم الدَّور الهام للبداية السلبية في الإنسان، ولعبت دوراً إيجابياً هاماً في تطور الواقعية، ومن المعروف حماس وتصميم مكسيم غوركي فيما بعد من أجل تطوير هذه البداية الرومانسية لإنشاد الثورة البروليتارية.

ومن المعروف أيضاً، بأنَّ غوركي قد اجتاز طريقاً طويلة عبر المرحلة الرومانسية. ولقد تجسدت (البداية الرومانسية) في نتاجات الكتاب الواقعيين في التسعينات من القرن التاسع عشر، وهو ما يميز هذه النتاجات عن التيار العام للأدب الروسي الواقعي لتلك السَّنوات، وتتسم هذه النتاجات بالكره العميق واللامحدود لعالم الاستغلال وجشع الملكية، وبكونها تَشعُّ إيماناً في المستقبل الوضاء للإنسانية.

إن الروح الثورية لمكسيم غوركي، وتعطشه للحرية جعلا جميع نتاجاته تتميز بروحٍ شاعريةٍ تنصب في قالبٍ فنيٍّ، رومانسي، ثوري، ولهذا كان نتاجه «أغنية عن طائر النوء» عملاً رائعاً ومُكملاً لتقاليد الشِّعر الثوري، الذي تعود فترة ازدهاره إلى أعوام ثورة 1848. وإلى أيام الشعر الثوري الفرنسي تحت تأثير عملية التحضير لكومونة باريس، وبعد سقوطها حيث قيل من الشعر بالأسلوب

التراجيدي الثوري.

وقد قال الناقد الأدبي اليسبرغ مبيناً أهمية الروح الثورية الرومانسية بالنسبة للأدب: «إن الروح الرومانسية الثورية تغتني بالواقعية الاشتراكية، ذلك أن الرومانسية الثورية هي من صلب النِّضال من أجل المثل الاشتراكية، ومن صلب النضال من أجل الاشتراكية، وبناء المجتمع الاشتراكي المتطور والانتقال لمرحلة عليا من تطور الإنسانية، ولكن التصور الرومانتيكي الخيالي السلمي بعيد كل البعد، بل غريب كل الغرابة عن الفن الاشتراكي[14]».

إنَّ المرحلة الأدبية الأولى من حياة الكاتب، بغض النظر عن الواقعية الوطيدة لفنه كانت تَميل، دون شك، وكما عبَّرَ بذاتهِ، إلى الحسنات الرومانسية من أجل عكس الحياة وتربية الإنسان تربية مثلى، ولقد أثارَ حماس غوركي الشباب، وبعث القوة القاهرة، والاندفاع الشديد في نفوس الرومانسيين الثوريين.

ومن مُميزات الرومانسية أنها تُساعد على التصور الخيالي (الفانتازيا) وتكون الواقع الجديد بما يتطابق مع المثل الأخلاقية، التي تميز تطور الإنسانية. وفي المثل الجمالية للرومانسية الإيجابية تنحصر المنطلقات النظرية المتتابعة والهجومية لتطور المجتمع، وفيها تتجسد الديناميكية الجوهرية للحياة، كما تنحصر فكرة ضرورة المآثر الإنسانية الإيجابية من أجل التطور الدائم والحثيث للحياة.

إنَّ إبداع مكسيم غوركي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد عكس التغيرات العميقة المبدئية في تفكير وطباع الفئات الواعية من المجتمع الروسي، وقبل أيِّ شيء آخر طرق تفكير الطبقة العاملة، وفي هذا المجال بالذات لعب غوركي دوراً عظيماً، فكان بمثابة «طائر النوء» الذي يبشر بالموسم الجيد، وبنفس الوقت يشعل الصواعق والعواصف، لقد قام غوركي بدورٍ كبير، في تصوير النشاط الثوري للبروليتاريا، ومن خِلال تلك الصور التي

---

[14] اليسبرغ، ي. خ. الواقعية الاشتراكية والتطور الفني للإنسانية. موسكو 1966، ص74.

obeikandl.com

قدمها الكاتب في نتاجه «أغنية طائر النوء» يشعر القارئ أن العاصفة آتية لا محال ومن دون أيِّ شك، وأن الثورة سوف تعم جميع أنحاء روسيا.

إن ذلك النتاج الوجداني والحماسي (أغنية طائر النوء) قد ظهر في وقته، في فترة اليقظة الاجتماعية الواسعة عشية ثورة (1905)، ولهذا كان النداء «دع العاصفة تزمجر أكثر» الذي جاء كبيت من القصيدة، على درجة كبيرة من الأهمية، وأصبح شِعاراً ثورياً للطبقات المناضلة ضد الظلم والاستغلال القيصري في تلك الفترة من حياة روسيا، ولم يكن الأمر مجرد مصادفة عندما اختتم لينين مقالته «قبل العاصفة»، والتي كتبها في خضم الثورة الروسية الأولى (1905) بذلك النداء التاريخي، لقد انتشرت (الأغنية) انتشاراً واسعاً، وتناقلها الثوار من مكانٍ إلى آخر لإيقاظ الروح الثورية في شتى أصقاع روسيا المتباعدة الأطراف.

تطور نتاج غوركي:

وبكلمة أخرى، فإن نتاج غوركي في نهاية القرن التاسع عشر ـ بداية القرن العشرين كان يسير كنهر عرمرم، التقى فرعان من فروعه في وادي عميق. والفرعان اللذان توحدا في نتاج غوركي هما: الرومانسية الثورية، والواقعية الحادَّة المتيقظة، غير القابلة للتهاون، ولكن قضية تقسيم نتاج غوركي في المرحلة الأولى إلى قسمين: رومانسي وواقعي تبقى قضية نسبية، لأن الواقعية لم تفارق جميع نتاجات غوركي الرومانسية، كما أن الرومانسية الثورية تنعكس في جميع نتاجاته الواقعية تقريباً.

ومِن الممكن أنَّهُ لهذا بالذات، يعتقد بعض النقاد في مجال علم الأدب، أنه لم يكن عند غوركي مرحلة إنتاج أدبية رومانسية مستقلة، وإن الكاتب، منذ بداية نشاطه الأدبي كان يسير ضمن الخط الواقعي، كما كانت نتاجاته من أهم الأعمال الأدبية الواقعية، وفي حقيقة الأمر فإنَّ المذهب الرومانسي قد ساعد غوركي على تحقيق تلك الحلقة المفقودة في الواقع العملي، وتطوير الواقع في

obeikandl.com

فجر نهوضه، والحياة التي كانت حُبلى بالثورة، ففي المرحلة الأولى من نشاط غوركي الأدبي، أحسَّ بأهمية نمو وتطور الشخصية، وإدراك دور الفرد في العمل الجماهيري الواسع، وكان متأثراً إلى أبعد الحدود بالحماس الشخصي، وإثبات الذات. كل ذلك كان دون مشاركة مباشرة، أو بالاعتماد الكلي الواضح على القوى الفعالة الأساسية في التاريخ، ولكن غوركي في واقع الأمر قد بدأ يعكس المرحلة التاريخية الجديدة، وفي هذا بالذات تنحصر أهمية سلسلة غوركي الأدبية المسماة (بأدب المشردين) بكل ما تتسم به هذه السلسلة من ميزات خاصة، ومعالم واضحة، أما المرحلة الفاصلة في نشاط غوركي فهي تلك التي أقام الكاتب فيها علاقات مباشرة بين إثبات الشَّخصية الذاتية، وبين التأكيد على أهمية دور الطبقة العاملة الثورية.

الرومانسية الثورية:

تضمَّنت الرومانسية الثورية في ذاتها تصوراً ثورياً، ملؤه الأحلام والآمال بالمستقبل والطموح العنيد والحار من أجل إحداث انقلاب في العالم، ولقد تضمنت الرومانسية الثورية الرغبة الأبدية الشديدة للإنسانية في التقدم (إلى الأمام وبخط بياني صاعد)، وهنا بالذات تنحصر أهمية نشاط المناضلين البروليتاريين من أجل الثورة الاشتراكية، خاصة أن موقفهم كان يمتاز بالنقد الواعي الحاد، وبالإدراك العميق للواقع العملي، وإن دل هذا على شيء، فهو يدل على الحماس الثوري الرومانسي، الذي يرفض المصلحية والذاتية الأنانية الانتهازية، فالرومانسية البروليتارية الاشتراكية خالية تماماً من التخيلات الوهمية، وبعيدة كل البعد عن الطوباوية المثالية، ولهذا بالذات فإنَّ الرومانسية الثورية الاشتراكية تجد لنفسها المجال الفسيح والظروف المناسبة لتطبيقها في الحياة العملية الفعلية، وفي أشكالٍ واقعيةٍ للحياة نفسها، وتتجه إلى تلك المواضيع النموذجية، التي تجاهلتها هذه المدرسة سابقاً، بل احتقرتها لعدة

obeikandl.com

أسباب رئيسية، أما الآن ففي الحياة نفسها تنعكس مثل هذه القيم وتأخذ الرومانسية معنى التطور المستمر نحو الأمام، إن طموحات الإنسان نحو الحرية تتخذ لتطبيقها الأسس الفعلية من الواقع الحقيقي.

«وما عظمة حقيقة العالم المبعوث حديثاً إلا بقدر عظمة القوة الاجتماعية التي تمثلهُ والكامنة فيه، والتي شكَّلت كارما هائلة الانفجار، وهذا يعني ظهور الأشكال والقيم الاجتماعية والسياسية والجمالية التي تكونت ومتانة ووضوح أشكال العلاقات مع الذات، والمجتمع، وقوة العلاقات التي توحد بين الناس في العالم الجديد، وتأكيد الذات وإثبات وجود العالم المتكون حديثاً في خضم نضال ثوري عنيد تخوضهُ القوى المغلوبة على أمرها ضد القوى المسيطرة في المجتمع القديم، وهذا الموضوع بالذات انعكس واتضح في مسرحية مكسيم غوركي «الأعداء» ورواية «الأم» الشهيرة».

غوركي والمذاهب الأدبية:

في أدب هذه المرحلة نجد أن هناك اندماجاً بين المذهب الرومانسي وبين مذهب الواقعية النقدية، بل اتحاداً بين أفكار الاشتراكية والواقعية، ولكن هذا لا يعني أنه كان بإمكان الواقعية الاشتراكية أن تتجسد بقالب: الواقعية الكلاسيكية مُضافاً إليها المثل الاشتراكية، إن الواقعية الاشتراكية استفادت ليس من الفن الكلاسيكي الواقعي وحسب، بل وحتى من الشَّكل الفني، الذي استخدمته التيارات التقدمية في الرومانسية، وتتميز الواقعية الاشتراكية أيضاً برمزية خاصة تتطابق مع أسسها ومعالمها، وكغيرها من الأشكال والقوالب الفنية، المشروطة، والأشكال الرومانسية المتكونة في الفن قد دخلت في مَجال تجربته الفنية، وتأخذ هذهِ المواضيع تسميتها الحقيقية في الواقعية الاشتراكية ـ فتصح أشكالاً شاعرية تستخدم لتجسيد أفكار الشاعر على اختلاف أنواعها، عندما يريد أن يجسدها، أو يعبر عنها في صيغ عامة،

obeikandi.com

وهكذا استخدم غوركي الشكل الرومانسي المشروط للتعبير عن ندائه للثورة في «أغنية طائر النوء»، زمجر بهذا النداء بصوته الجمهوري في رواية «الأم». في شكل واقعي، وبصيغة محددة لتصوير حدث تاريخي محدد، هو حقيقة الثورة الروسية عام (1905). حيث إتحد صوت الرجل الحقيقي حكيم غوركي مع صوت الأم المدافعة عن ابنها ورفاقه، وهذا كان خير مثال لمشاركة المرأة في أحداث الثورات المتلاحقة في روسيا، حتى تتوجت بثورة أكتوبر الاشتراكية التي هزت العالم كما قال عنها الصحفي الأمريكي جون ريد.

وجلجل صوت العمال بعيداً إلى كل الغارات متحداً مع المناشير الثورية التي قذفت بها الأم إلى الفضاء لتملأ الدنيا بشعار «يا عمال العالم، و يا أيتها الشعوب المظلومة اتحدوا»!!! كل هذا لعب دوراً هاماً وحاسماً في تكون غوركي ككاتب بروليتاري يحمل أفكاراً تقدمية. وكان مما ساهم في ذلك اقترابه وتعرفه على شخصيات مرموقة من حركة الديمقراطيين الاجتماعيين الثوريين الروس، وتأثره أشد التأثير بالجريدة اللينينية (إيسكرا) «الشرارة»، ومما لعب دوراً بالغ الأهمية في تكوين شخصية مكسيم غوركي كانت تلك الصداقة الشخصية مع لينين، الذي ناضل من أجل أن يكون مكسيم غوركي كاتب البروليتاريا في أعلى درجات الإبداع، وقد تجدر الإشارة إلى أن هذه الصداقة مع لينين، قد أنقذت مكسيم غوركي من المطبات الانتهازية التي وقع فيها الكثيرون من ممثلي الإنتيلجينسيا من أمثال سولافيوف، وبيرديافف وغيرهما من الكتاب الذين ترددوا وتراجعوا ليجلسوا في أحضان أنصار القيصر والكنيسة.

ومع هذا فإن الواقعية، التي كان عليها أن تعكس الحياة الجديدة، تتكون وتتطور وتتغير أحياناً في حماسها المعهود وفي مذهبها وطرائقها، وفي أشكالها الفنية بما يتلاءم مع التطور التاريخي للمجتمع، وبكلمات أخرى، فإن الأسس الجمالية لهذا المذهب الأدبي الجديد والطرق الفنية لتجسيده تقوم على التوحيد،

obeikandi.com

الذي قام به غوركي بين الواقعية الجادة في تصوير الواقع وبين الحماس الرومانسي للمستقبل، مع تصوير المواقف البطولية للمناضلين من أجل الحياة الجديدة.

وقد اعتبر مكسيم غوركي المؤسس الجريء للأدب الجديد بحق، لأنَّه امتاز بعبقرية الفنان المبدع، وتمكن من تسخير مواهبه لخدمة أكثر المُثُل تقدميَّةً، والتفهم الثوري للعصر، والحب اللامحدود للشعب، والكره الكبير للمستغلين من قبل الطبقات الكادحة، وعمل غوركي لخدمة الثقافة العالية والمعرفة العميقة للحياة، ولأول مرة في التاريخ قام غوركي المبدع الحقيقي للصور الفنية الأدبية، التي عكست العملية الثورية، وهو أول من تمكن من الدَّمج بين الأفكار والنظريات الاشتراكية مع الحركة الثورية للجماهير الشعبية بزعامة الطبقة العاملة.

لقد برز مذهب الواقعية الاشتراكية من خلال العلاقة الجديدة الناشئة بالنسبة للجماهير الشعبية، وبالدرجة الأولى للبروليتاريا، ولقد اكتشف غوركي الإمكانيات الجديدة حتى يحيط الأدب بجميع نواحي الحياة، وليضع بداية الاتجاه الجديد في الفن العالمي، ولهذا كله أصبح غوركي، وحسب اعتراف علماء الأدب العالمي، المؤسس المبدع لهذا المذهب الأدبي.

ولقد قَوَّمَ الكاتب والناقد "قسطنطين فيدين"، دور مكسيم غوركي في تاريخ الأدب العالمي تقويماً بالغ الأهمية، فكتب يقول: «إن غوركي كان يمثل عصراً بأكمله، وجيلاً في مرآةٍ عكست من خلالها التبدل التاريخي لعصرين متتابعين، هذه الحياة، كانت أول حياة لكاتب، أعطت إلى أبعد الحدود، ودون أن يستبقي منها شيئاً إلى الطبقة العاملة في مرحلة نضالها وبعد انتصارها.

هذه الحياة، كانت ـ الحياة العظيمة الأولى للكاتب البروليتاري وأهمية الاكتشاف، الذي أحدثه الكاتب في حياته، ينحصر في كونه قد استخلص كل خطوة من حياته الأدبية من الأحداث والظروف في عصره، وأصبحت سيرة

obeikandl.com

حياته، توأماً لسيرة ثورة البروليتاريا[15]».

ومن باب الوفاء للكُتَّاب الذين لعبوا دوراً في حياته، اعتُبر مكسيم غوركي كارولينكو من أهم معلميه، فكتب عنه يقول: «لقد كان معلمي لفترةٍ قصيرةٍ من الزَّمن، ولكن رغم قِصَرِ هذه المدَّةِ كان معلماً حقيقياً، أفتخر به حتى يومي هذا[16]».

بَيد أن غوركي، ذهب بعيداً إلى الأمام متجاوزاً معلميه فطوَّرَ التقاليد العريقة في الأدب الكلاسيكي الواقعي، مصوراً ومبدعاً في تبيان المثل الأخلاقية العالية لبسطاء الناس من الأوساط الشعبية، وأول ما امتاز به غوركي هو الإبداع في تصوير طريقة تفكير الإنسان البسيط، وتفهَّمَ كيفية استيعاب الناس البسطاء للتغيرات الناجمة في العالم، وفي الحياة من حولهم، فأبطاله غالباً ما يفكرون ويتناقشون في الحياة، بصورةٍ واضحةٍ وبسيطةٍ، وعادةً أحياناً لدرجة العُنف.

وبهذا وحده يتضح إلى أية درجة بلغ تطور الوعي الشعبي عند ممثلي مختلف الأوساط الاجتماعية، إن أفكار الأبطال والشخصيات في نتاجات غوركي موجَّهة للبحث في الظروف الاجتماعية الحياتية، والتفتيش عن بقعة ضوء في ظلمة الحكم القيصري القاتم، ويؤكد مكسيم غوركي، وبشعورٍ مِلؤهُ الفرح على الاعتزاز بالنفس والاحتجاج من قبل الإنسان البسيط ضد (القيود الحقيرة) للحياة، والبحث عن المخرج، وكان هذا أول موقف فني ثوري تجاه الإنسان من جانب كاتب، ربط حياته بشكلٍ مباشرٍ مع التقاليد التنويرية الثورية في أعوام الستينات من القرن التاسع عشر وتمكَّنَ من التخلي عن كُل شيء طوباوي امتاز به الدُّعاة المنورون في تلك الآونة.

لقد عكس غوركي في نتاجاته حياة الشَّعب العامل المبدع والواعي لأحداث

---

[15] فيدين، ك. غوركي بيننا، موسكو 1968، ص381.

[16] غوركي، م. المؤلفات الكاملة، في 30 مجلد، المجلد 29 ــ موسكو 1955، ص444.

obeikandl.com

التاريخ، والذي أصبح على هذه الدرجة من الوعي خلال عملية النضال الثوري. كما آمن كل من تولستوي ومكسيم غوركي بالإنسان وبقدرته وبسعادته. لكن إيمان غوركي كان قبل أيِّ شيءٍ آخر الإيمان هو بقوة النظرية الفكرية السِّياسية المبدعة، التي بإمكانها أن تحول العالم إلى الأفضل باستمرار، وهذا الاتجاه وجَّه غوركي إلى أن يبحث عن الحقيقة في إنجازات الفكر الاجتماعي التقدمي.

أما بالنسبة للواقعية الاشتراكية فإنَّ أهم ما يميزها هو الاعتماد على العقل، والوعي كبداية أساسية ضرورية في عالم الإنسان الداخلي، وفي تمركزه حول الحياة الاجتماعية، وغالباً ما نجد هذا في أسلوب غوركي ومذهبه عند الكلام عن الإنسان، وبغضِّ النظر عن درجة العلم والتطور التي توصل إليها أبطال نتاجاته، فإن غوركي يعتمد على مستوى الوعي الذي يتمتعون به، وعلى خصائص حياتهم الروحية، إن مرحلة تطور الفكر، وتصارع العقل مع ما علق به من تخلُّفٍ وأمورٍ فُطر عليها، بالإضافة إلى المشاعر والأحاسيس والرغبات، هذا كله أول ما يلفت انتباه غوركي في العالم الداخلي للإنسان.

أما إذا وصفنا كلاً من ليف تولستوي وماكسيم غوركي اللذين كان يوجد بينهما صداقة متينة في الميزان الذهبي للكتاب العباقرة، فإننا نجد الكثير من الشبه الجوهري: كل منهما واقعي في مجاله، ففي الوقت الذي ركَّزَ فيه تولستوي في روايته الواقعية التاريخية «الحرب والسلام» على موضوع تاريخي حول غزو نابليون بونابرت لروسيا، وكيف تمَّ طردهُ مع جيوشه مدحوراً، نجد غوركي قد ركَّزَ على المواضيع الطبقية، وكلاهما يهتمان اهتماماً بالغاً بتطور الروح الإنسانية، والميزات الإنسانية في الإنسان، بينما يرى تولستوي أن إنقاذ الإنسان يجب أن يتم عن طريق التكامل الأخلاقي للإنسان نفسه، كان غوركي يعتقد بأنَّ المخرج من الوضع الحائر يتم أولاً في التغيير الثوري للوسط الاجتماعي والظروف المحيطة، التي سببت وقوع تصرفات خاطئة وشاذة من

جانب الإنسان (انظر رواية الأم)، وهذا ميَّزَ واقعية غوركي بميزاتٍ خاصة، فالواقعية الاشتراكية قد وسِّعَت، كما لم يحدث من قبل حقل نشاط الفن، وأنارت الواقع الحقيقي بأشعةٍ جديدةٍ، وعثرت على الكثير من القيم الهامة تاريخياً.

لقد عبر مكسيم غوركي عن إيمانه ليس بالإنسان والطبيعة الإنسانية وحسب، بل أكد على فكرة تغيير الذات واكتشاف قدراتها، وأفضل ما تحتويه خلال عملية التغيير الثوري للحياة، ولقد برهن على نمو القوى التاريخية، التي يجب أن تأخذ على عاتقها المسؤولية في إجراء تحولات ثورية في البلد، وتبدأ بتنفيذ الآمال الخيرة والأحلام القديمة بتطوير روسيا الحُبلى، كما كتب غوركي في رواية «الأم» بأنجح الطرق و الأسس الديمقراطية في العالم.

وفي الوقت الذي تابع فيه ليف تولستوي طريقته القديمة انطلاقاً من مواقفه المنسجمة مع آرائه وفلسفته بخصوص (الإنسانية المُجرَّدة)، اتخذ غوركي موقفاً مُغايراً تماماً انطلاقاً من مواقع الإنسانية الثورية للطبقة العاملة، من مواقع النظرية الماركسية، وفي الوقت الذي كان يصور فيه ليف تولستوي عذاب «أُناس الحضيض»، دون أن يرى المخرج الحقيقي من هذا الوضع المأساوي كما في مسرحية «سلطة الظلام» وقف غوركي موقفاً يختلف كلياً: ففي الوقت الذي صور فيه غوركي «أناس الحضيض» في وسطهم الاجتماعي، كان يحثُّ القوى ويحرضها على إجراء التحولات في الحياة، كما في مسرحية «الأعداء» ومسرحية «في الحضيض» وفي رواية الأم ـ ففي هذه النتاجات والتي امتازت بأهمية تأسيسية للواقعية الاشتراكية ـ فقد قدَّمَ غوركي صورةً واضحةً لمقدرة الجماهير الفعليَّة.

هُنا نرى أُناساً لهم قضية واحدة، من ذوي الاتجاهِ الفكريِّ الواحد، تجمع بينهم طموحات مُشتركة، يشاركون في النضال ولكل منهم من حيث الميزات الشخصية سماته الخاصة، وطبيعته الذاتية، لكن الشيء الأساس الذي يوحد

فيما بينهم، هو الطموح نحو التحويل الاشتراكي لحياتهم.

لقد وجد غوركي هذه القوى في الطبقة العاملة الثورية وفي نضالها من أجل الاشتراكية. ولذلك نجد أن واقعية غوركي تقوم على تصوير نضال الطبقات كقانون للتطور الاجتماعي، والنضال الذي يفتح المجال والأفق لانتصار الاشتراكية.

لقد أثر ف. إ. لينين تأثيراً كبيراً في نتاج مكسيم غوركي وفي نشاطه عامة. ففي 1906 سافر غوركي إلى أمريكا لجمع بعض التبرعات للعمل الثوري. وكانت هذه الرحلة عبارة عن مهمة حزبية كلف بها. ومنذ تشرين الأول 1906 وحتى تشرين الثاني 1913 عاش غوركي في إيطاليا في جزيرة كابري، وهنا توقفت صلته بالحزب، وبأصدقائه من البلاشفة، وشارك في أعمال المؤتمر السابع (في لندن)، وبعد المؤتمر باشر غوركي بمراسلة كثيفة مع ف. إ. لينين.

وتمتاز نتاجات مكسيم غوركي، التي ألفها خلال العشرة أعوام، التي أعقبت انتصار ثورة أوكتوبر الاشتراكية في روسيا بأهمية أدبية فنية كبيرة. ففي هذه النتاجات يعكس شرخاً طويلاً وعريضاً من حياة الشعب الروسي في مرحلة تفصل بين عصرين تاريخيين. ولنسم على سبيل المثال نتاجات «الأخير» (1908)، وقصة «الصيف» (1909)، «حياة ماتفي كو ـ جيمياكين» (1911)، «حكايات عن إيطاليا» (1911) ـ (1913)، والسيرة الذاتية «الطفولة» (1914)، «في الناس» (1916)، في هذه النتاجات وغيرها، و كذلك في المقالات، وقف غوركي مدافعاً عن الطبقات المضطهدة، ومديناً عالم الجشع المادي. ومناضلاً ضد الرجعية والسيكولوجيا الإقطاعية الأنانية، وضد الفن البرجوازي المتعفن ـ وحسب كلمات شاعر الثورة فلاديمير مایاكوفسكي، لقد عرف غوركي ووصفه ـ «ببشير الانتصارات المستقبلية»، فهو يؤكد على الثقة بالنصر الأكيد للبدايات الحياتية الإيجابية، وللقوى الثورية من أبناء الشعب ولم يجد الإنسان الروسي له أي تصوير فني إلى أبعد الحدود، ومتعدد الجوانب،

obeikandl.com

ويعكس تناقض الحياة الاجتماعية والعلاقات الحياتية والأيديولوجية، لم تجد روسيا سابقاً لها مثل هذا التصوير المتنوع، الإنسان عند غوركي من الحياة يفهم ويحاور في السياسة والفلسفة، وتولد الأيديولوجيا من عالمه السيكولوجي الخاص. علماً أن حياة مكسيم غوركي كما كتب عنها في ثلاثية مسيرة حياته (طفولي، في الناس، جامعاتي) هي بحد ذاتها موسوعة اجتماعية هائلة.

ولقد ساهم غوركي مساهمة فعالة في تحضير «أول مجموعة للكتاب البروليتاريين» عام 1914 ، فاستقطب أنظار أفضل الكتاب واهتماماتهم وحصل على تأييدهم للثورة، وخاصة عندما قربهم من مجلة «المخطوطات القديمة» وكذلك في دار النشر «الشراع». كما دعم ومجد الخطوات الأدبية للكتاب ن. تشيشكوف، أ. تشييغين، ك. ترينوف، ف. غلادكوف وغيرهم من الكتاب، الذين أصبحوا بعد انتصار ثورة أكتوبر من الكتاب المعروفين في الأدب السوفييتي، ولقد استشهد الكثير من الشعراء والكتاب في جبهات النضال إن كان في الحرب الأهلية أو في الحرب العالمية الثانية في الصراع مع الفاشيين الألمانيين وفي مرحلة الردة 1907 ـ 1911 تحول جزء كبير من المثقفين البرجوازيين المقربين من القصر إلى اليمين، فأخذ غوركي يرفع صوته عالياً للدفاع عن الثورة، والدفاع عن التقدم، وعن الأدب الشعبي الحقيقي. ولقد شارك غوركي بفاعلية، أكثر من أي فنان آخر، وأحس بعظم التوتر في الحياة الروسية، والصراع الدائر ضد قوى الشر والعدوان.

وبرز هذا الشعور عند غوركي أكثر وضوحاً وخاصة في «أناس الأجيال الغابرة». وهاجم غوركي بعنف الأخلاق البورجوازية في قصص العشرينات، وكذلك في قصة «حياة كليم سامغين».

وساهم غوركي بحيوية في مجلة «النجمة» وغيرها من الصحف البلشفية. ولقد قدر لينين هذا الدور الإيجابي لغوركي وأثنى عليه في أكثر من رسالة. وتحت تأثير الأفكار الماركسية اللينينية وتوصيات لينين، قام غوركي بنضال عنيد

obeikandi.com

ضد الخصوم والأعداء السياسيين في الأدب والفن. وقد لعبت مقالات غوركي دوراً هاماً، وخاصة مقالاته «عن الانحطاط» (1908) «تهديم الذات» (1909) «عن الاتجاه الكارامزيني» و«مرة أخرى عن «الكارامزينية» (1913)، «عن كتاب التعليم الذاتي» (1911)، دوراً هاماً في النضال ضد الأدب الرجعي.

في الحضيض:

صور مكسيم غوركي في نتاجاته الفنية التي كتبها في أعوام 1900 ـ 1910 عالم الفقر والحرمان الجائر والمرعب وعذاب أناس (الحضيض)، وأدان من خلالها عالم البرجوازية الجشع، الذي يصوره بشكل أساسي في مسرحيته (في الحضيض) حيث أدان البرجوازية المتمثلة في طباع الشخص السلبي في مسرحية «صاحب المأوى» (كاستيلوف) الذي يحاول أن يمتص الربح حتى من الأموات. ويصور غوركي زوجة كاستيلوف أيضاً كوحش مفترس. وهكذا كما في النتاجات الأولية عن الصعاليك المشردين يحاول مكسيم غوركي تصوير عالم أولئك الجشعين أمثال كاستيلوف، ويدين المستغِلين لأولئك الفقراء المشردين من سكان الحضيض، وقد ورد هذا في أحاديثه السابقة والتي خص بها الجديد في مسرحية «في الحضيض»، حيث أن التجديد في هذا الأمر ليس في الموضوع، ولكن في الحل الجديد لهذه العقدة والمسألة الاجتماعية الطبقية الهامة. فهنا نلاحظ الموقف الجديد من جانب غوركي بخصوص المشردين، إذ يحاول التعمق أكثر من ذي قبل في مصائرهم وحياتهم الخاصة، وفي سماتهم وأخلاقهم وسيكيولوجيتهم الاجتماعية. فأبطال المسرحية يحاولون تفهم أسباب ومعنى مصيرهم ووجودهم، فيتناقشون فيما بينهم حول الإنسان، والحقيقة، والسعادة إلى أن يؤدي النقاش إلى نتيجة تقتضي ضرورة إلغاء وتغيير ذلك العالم الذي أخذ له تعبيراً واضحاً، وصورة واقعية في مآوى كاستيلوف.

ويجيب مكسيم غوركي بخصوص سؤال عن الحقيقة الفعلية الوثائقية لحياة بعض الأشخاص بأجوبة مختلفة منها ما ينطلق به من وجهة نظره الخاصة، التي لا تتطابق مع أفكار ونظريات واقتراحات واحتجاجات الأشخاص الفاعلين في موضوع المسرحية، وأن الإنسان حسب اعتقاد غوركي، قادر على الابتعاد كل البعد عن الوسط الحياتي الوسخ والغرائز الجشعة والصعود إلى مستوى العظمة الأسطورية، والحكمة الحقيقية، وأن العواصف الثورية وأفكار الاشتراكية قد فتحت الطريق إلى نمو الشخصية بشكل كامل ومتكامل كما لم يحدث من قبل، في البحث لإيجاد الطرق المناسبة للتدخل الإيجابي في صراع الحياة. هذا النمو والتطور الإنساني، القادر على أن يسرع بنضاله وعمله ونتاجه. في سير المجرى الحياتي وإيجاد الطرق المثلى للسير نحو الأفضل ـ هذا هو الإنسان الجديد.

في مأوى كاستيلوف يعيش أناس مختلفون، ولكنهم أناس متشابهون من حيث المصير البائس الذي يوحد فيما بينهم، إنهم ينظرون إلى واقعهم هذا بنظرات مختلفة: لقد استسلم كل من أنَّا المريضة وتاتارين إلى مصيرهما البائس هذا، أما بالنسبة لبارون فلم يكن يتمتع بأية مزايا حميدة، زد على ذلك أنه كان يقابل مصائر زملائه في التعاسة والبؤس بالسخرية، وهذا وحده ما يقدر عليه، أما اللص السراق (فاسكا بابل) فهو يتمرد ويحتج على طريقته. ناستيا تفرح بتصرفاتها العابثة السيئة، أما (ساتين) فهو يتكلم بالفلسفة والحكمة، ولكنه سلبي للغاية، ولا يقوم بأي شيء لتحقيق أهدافه ومثله.

وأكثر إنسان يعاني من الوجود في مأوى كاستيلوف، كان العامل كليش، الذي يحلم بالخروج من هذا المأوى بأسرع وقت ممكن، وأن يعيش ويعمل في ظروف حياتية إنسانية، ويعمل بإخلاص من أجل المجتمع[17] أن (تساوي الناس) على اختلاف أنواعهم، يعتبر من أحد مبادئ مكسيم غوركي الفنية، والتي

[17] بتروف س. م. مسائل الواقعية في الأدب الفني، موسكو 1962، ص265.

obeikandl.com

تتضمنها نتاجاته. ومن المهم جداً أن ندرك أن غوركي ينطلق في كل هذا من مبادئه الإنسانية، ومن مقدرته الكبرى في أن يجد في كل إنسان غير عادي بعض النواحي الإيجابية[18].

إن هذا التفهم من جانب غوركي للإنسان الروسي يعود دون أي شك إلى عمق الجذور الاجتماعية التي يمتلكها الكاتب وبهذا وحده نجد أنه من الممكن التوصل إلى فهم هذه الحقيقة القائمة بين الكاتب والقضايا المعكوسة من قبله[19].

وفي قصة المسرحية يحتدم النقاش بين لوكي وساتين، فهما إنسانان مختلفان كلياً، ولهما آراء مختلفة فبالنسبة للوكي كان ينظر إلى الحقائق والأمور التي تحيط به بقدر ما له من مصلحة ذاتية فيها، وهذا يدل على أنه غير مبال بالجوانب الإنسانية مطلقاً: فهو لا يؤمن بالإنسان، لأن كل النَّاس بالنسبة له أنانيون، يطمحون إلى الرَّاحة النفسية[20] وعليه أن يقوم بدورِ الإنسان الذي يخفف من حدَّةِ الأمر، فكل ما يتكلم عنه، لتهدئة مُحدِّثهِ، عبارة عن سلسلة من الأكاذيب لم تساعد على حلِّ القضايا المعقدة في أية مرحلةٍ من مراحل حياة الإنسان، بل على العكس تماماً، فالأكاذيب تضرُّ الإنسان ومستقبله وحياته بمجملها، والمثال على هذا هو الخداع الذي يمارسه مع الممثل متحدثاً عن وجود مستشفى مجاني لمعالجة المدمنين على الخمرة، وعندما اكتشف الممثل أن كل الذي تكلَّمَ عنه لوكي كان كذباً وخداعاً، أقدم على عملية انتحار قاتلة، تلك هي نتائج الحياة التي يدعو إليها لوكي الذي حاول أن يلفت انتباه النَّاس إلى التناقضات الحقيقية في الواقع الحياتي العملي.

هذه الشَّخصية السلبية كانت مُوجَّهةً لخوضِ نقاشٍ حادٍّ مع تولستوي، بل

---

[18] تاريخ الأدب الروسي السوفييتي، في أربع مجلدات، المجلد الرابع، موسكو 1971، ص93.

[19] نفس المرجع السابق ص93.

[20] الواقعية الاشتراكية والتطور الفني للإنسانية، موسكو 1966، ص94.

obeikandl.com

مُخصصةً لإدانة نظريته القائلة «إنَّهُ من غير المُمكن مُقابلة الظُّلم بالقوة والتمرد»، أو الشَّرِ بالشرِّ إذا كان يدعو للتسامُح وضِدَّ قول «العين بالعين والسن بالسن».

إن مظهر «لوكي» في المسرحية مقابل صورة ساتين الذي يُعتبرُ إنساناً ذكياً، لم يفقد - بغضِّ النظر عن الظروف القاهرة - سماته وميزاته الإنسانية الخيِّرة، فهو يفهم جيداً، أن لوكي يخدع زملائه وأُخوتهُ في هذا المأوى، ويحاول أن يردعه عن ذلك، ويشرحُ له تلك التصرفات الخاطئة، إن ساتين لا يبرر تصرفات لوكي الخاطئة فهو يدعم الحقيقة، بغضِّ النظر عن مَرارة الحصول عليها وتحقيقها «الكذب هو عقيدة العبيد والمالكين.. والحقيقة - إله الإنسان الحر[21]».

إن الإنسان بالنسبة لساتين هو بداية جميع البدايات الأُخرى «كُل شيء في الإنسان» وكُل شيء للإنسان والإنسان أساس الكون، وكُل شيء في هذه الدنيا من صنع يديه وعقله، الإنسان يا له من روعة حقيقية، وكلمة إنسان تصدح... بافتخار وعظمة، يجب احترام الإنسان ليس بالعطف عليه... فالإحسان والشَّفقة يُحِطَّان من قيمة الإنسان.. يجب احترامهُ أولاً و أخيراً[22].

إنَّ غوركي يطمح إلى انتصار «وارتقاء قوة الفكر» والحكمة التي تعتمد على طاقات الشَّعب، وإلى اغتناء الفكرة والمشاعر والأحاسيس «للإنسان الذي يتطور باستمرار» بكل الأحاسيس السليمة التي فُطِرَ عليها والتي تتطور عنده باستمرارٍ من خلال تطور الإنسانية، الخالية من الأمراض والهفوات والشُّذوذ. وهذا الطموح مُشبعٌ بألمٍ مأساوي من أجل ظهور الإنسان على حقيقته، ويناضل ساتين ضِدَّ الدعوة إلى الصَّبر والتسامح، إذ يكتب غوركي على لسانه: «إن هذا الكهل العجيب لا يُفارق تفكيري مُطلقاً، يا له من كهل؟... لا تزعج

---

[21] غوركي، مكسيم، المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 6، موسكو 1950، ص166.

[22] نفس المرجع السابق ص170.

obeikandl.com

الإنسان.. وإذا أساءَ لي أحدٌ في يوم من الأيام ـ سيكون هذا على طول الحياة فكيف الأمر؟ أأصفحُ عنه؟ لا يجوز طالما لا يستحق السَّماح[23]».

ولكنَّ الطموح الرومانسي بالنسبة لساتين يتناقض مع طبيعة وحقيقة وجوده، ويتناقض مع مظهر الحياة نفسها، وهو من حيثُ طبيعته الخاصة إنسان سلبي مُتشائمٌ، أناني، فهو لا يتمتَّعُ بأيَّةِ نفسيةٍ عماليَّةٍ، ويتحوَّلُ هذا الاحتجاج إلى نداءٍ صريحٍ ضِدَّ الطفيليين والكسولين، الذين لا يعملون أي شيء.

يحاول الحداد «كليش» أن يتخلص من المأوى الليلي، ويحلم بشراءِ أدوات للحدادة ليعيش ويناضل ويكدح، ويقول له ساتين بهذا الخُصوص: «لا تعمل أي شيء ـ اجلس بثقلك على الأرض[24]».

في هذهِ المسرحية يتَّضحُ الضَّعف الذي يُعاني منهُ الأفراد أمثال ساتين، العاجزين عن تغيير مَجرى الحياة، والذين أصبحوا أقل من أن يُقدموا أيِّ شيءٍ يُذكر على طريق النِّضال من أجل تغيير النِّظام الاجتماعي، ويكشف غوركي عن هذا الضَّعف الإنساني بعبقريةٍ نادرةٍ، ويبيِّنُ أنَّ المستقبل سوف يبنى ليس بواسطة هؤلاء الضُّعفاء فيزيولوجياً ونفسياً وإرادياً، لأنَّ أمثالهم في الحياة لن يحملون إلا الضرر إلى الأجيال المقبلة، وما الطُّرق والمثل والأخلاق المزيفة والكسل والخمور إلا من أشدِّ الأمراض الاجتماعية التي تُسيء ـ حسب وجهة نظر غوركي ـ ليس للإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه فقط، بل للإنسانيَّة والحضارة الإنسانية جمعاء.

ـ مسرحية الأعداء:

ولقد كان لظهورِ مسرحيةِ «الأعداء» أثرٌ كبيرٌ للغاية من حيثُ الأهمية الاجتماعية، ففيها عَكَسَ المؤلف على خِلاف الكُتَّاب المسرحيين البورجوازيين، وأكَّدَ من جديدٍ تِلكَ الأفكار الكثيرة التي تناولها في رواية «الأُم»، بشكلٍ أساسي تقديم البروليتاريا الصِّناعية في روسيا على أنَّها المُهمة الأساسية في النِّشاط

---

[23] غوركي، المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 6، موسكو 1950، ص168.

[24] نفس المرجع السابق ص158.

obeikandi.com

الثوري، والبروليتاريا بالتعاون مع جماهير الفلاحين والمثقفين الثوريين والقوى المسلَّحة التي بإمكانها خوض الصِّراع والسَّير نحو النَّصر الأكيد، بغضِّ النظر عن بعض الصعوبات والعراقيل المؤقتة، ونرى أن غوركي اختار بعض الشَّخصيات الأساسية في المسرحية من العمال بما في ذلك البطل الأساسي، وهو على ثقةٍ أن أمثال هؤلاء النشطين من العُمال سوف يؤثرون تأثيراً إيجابياً وسريعاً في تحقيق المبادئ والأهداف التي يطمح إليها الشَّعبُ عامَّةً.

إنَّ الجماعات المتصارعة فيما بينها _ حسب رأي غوركي الواقعي _ هي: الطبقة البورجوازية وطبقة العمال، ومن غير الممكن، بل لا يجوز أن يكون مثل هذا الصِّراع بين شخصيتين أو عدَّةِ أفرادٍ على أساس المصالح الشخصية، والأمرُ ينحصرُ في قضيةٍ أسمى وأَعمق وهي تحرير الأكثرية السَّاحقة من الشَّعب من القيود والظُّلم والاضطهاد وشتى أنواع الاستغلال، ولقد جاء في مُقدمة المسرحية، أنَّ هذهِ المسرحية تَعكِسُ صِراعَ الطبقات، ففي الجزء الأول يتمُّ عكس الطبقة البورجوازية، والعالم القائم على العلاقات الاستغلالية، والتنازع بين الملكيات الخاصَّة، وفي الجِّزءِ الثاني من المسرحية يعكسُ المؤلف الحياة والأوضاع القاسية التي تَعيشها البروليتاريا، ونِضال سواد الشَّعب من أجل لُقمة العيش، وكيف تُستغل البورجوازيَّة المدعومة من قِبَل أجهزة السُّلطة على اختلاف أنواعها وتعدد أشكالها ـ بما في ذلك الجيش والشُّرطة ـ جهود العمال والفلاحين أبشع استغلال، وتعمل من أجل إبقاءِ جماهير الكادحين تحت سيطرتها أطول فترةٍ مُمكنة.

هذا ويوضِّح الكاتب مكسيم غوركي الدَّور الذي يلعبهُ ممثلو الحزب البلشفي من أجل توحيد صفوف العمال وتوعيتهم وتدريبهم على الطُّرق النضالية، ومن بين هؤلاء نتعرف في المسرحية على شخصية الثائر المحترف والعامل النشيط سينتسوف، وكان غوركي قد سبق غيره من الكتاب الروس في توضيح مسألة طرق النضال من أجل المبادئ الاشتراكية، ويرى أنَّ الأفكار العلمية التي تقوم عليها النظريات الاشتراكية كفيلة بنجاح الذين يعتنقون هذه الأفكار، كما

أكَّدَ غوركي على أنَّ الأفكار الاشتراكية لا تُقهر، وأنَّ سيد الحياة سوف يُصبح الإنسان العامل الممثل للكادحين، الذين يمتازون بأخلاقهم العالية، وبشعور التضامن والتعاطف فيما بينهم والتكاتف والتعاون المتبادل، وتمتاز الطبقة العاملة بالكثير من الميزات الرَّائعة التي صَعُبَ حصرها، بما في ذلك المثل الأخلاقية الجديدة، التي تُساهم مساهمةً فعالةً في تربية الإنسان الاشتراكي الجديد المُتحلِّ بالقيم الإنسانيَّةِ الرَّفيعة، ومن المميز للكادحين ليس حُبُّ الآخرين ولين الجانب الآخر، بل الوصول إلى درجةٍ عاليةٍ من التضحية من أجل المصلحة العامة بالذات، فعلى سبيل المثال: العامل ربابتسوف الذي يأخذ على عاتقه المخاطرة في قَتل صاحب المصنع المستغل الجَّشع من أجل إنقاذ رفاقه العمال النشطين والمجربين.

ومن المُهم هنا الإشارة إلى أن غوركي قد أبرز ـ ولأول مرة ـ سمات الطبقة العاملة التي تؤمن ليس بتحريرِ نفسها من القهر والعبودية فحسب، بل تحرير كل الإنسانية من الظُّلم والاستغلال، ولم يَسمح العمال لأنفسهم أن يقعوا في شرك أصحاب المشاريع الصِّناعية، ولم يعيروا أي اهتمام كان لإغراءاتهم الرَّخيصة. ويعبر العامل ياغودين عن أفكارهِ هذهِ بقوله: بالنسبة لنا فإنَّ جميع أصحاب المصانع سواسية: قُساة كانوا أم رُحماء[25].

ويؤكد العامل ليفشين على هذا إذ يقول: «إنَّهم الأعداء الحقيقيون، بمن فيهم السَّيد الشرير والسيد المبتسم[26]».

وفي معرض الكلام عن هذا، يؤكد مكسيم غوركي على أن المسألة الحقيقية هي في طبيعة الرأسماليين التي تنحصر ليس في السمات الذاتية للفرد صاحب المصنع، ولكن في التبعية الطبقية، لأن الصراع التناحري قائم بالدرجة الأولى بين الكادحين من جهة، وجميع ممثلي الطبقة الرأسمالية من جهة

[25] غوركي، م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 6 موسكو 1950 ص496.

[26] نفس المرجع السابق، ص496.

obeikandl.com

أخرى، وأن الكادحين واثقون كل الثقة من صحة مطالبهم السياسية والاقتصادية، «إنهم يثقون، دون أي شكٍ بصحة مواقفهم الحقيقية[27]». يقول ياكوف باردين، وهم يثقون أكثر من هذا في قوتهم التنظيمية التي تشكل الأساس الحقيقي لكل انتصار، إذ يقول مكسيم غوركي في نهاية مسرحية الأعداء: «يعجز أي إنسان كان، أو قوة معادية عن صدنا، والحد من إرادتنا، لقد مضى ذلك الوقت الذي عشنا فيه في الظلام وغياب القوانين، يكفي، فالآن قد اشتعلنا تعطشاً للحرية، وأصبح الطغاة عاجزين عن إطفاء هذه الشعلة الهائلة[28]».

فإذا كان العمال يمتازون بهذه الصفات العالية من التضامن والتعاون والتكاتف والمحبة المتبادلة، والمصلحة الإنسانية المشتركة، فإن هذا يغيب كلياً بالنسبة للبرجوازية المتفككة، التي تعاني من شتى الأمراض الاجتماعية، وبشكل أساسي حب الذات والأنانية الخالصة لكل فرد على حدة وهنا يقول أحد ممثلي البورجوازية واصفاً هذه المسألة: «إن الكادحين يعيشون متحابين متعاطفين، ويثقون إلى أبعد الحدود ببعضهم... ولكن الأمر بالنسبة لنا يختلف تماماً، إذ نَكنَّ العداء لبعضنا البعض، ولا نثق ببعضنا ولا توجد بيننا أية روابط كانت، كل واحد يعيش وحده ولذاته...[29]».

وإن مسألة النضال الثوري والتطور العاصف للحياة الشعبية، وتعقيد العلاقات الاجتماعية، والعمل الجماعي وما إلى ذلك ـ حسب رأي مكسيم غوركي، ـ ما هي إلا عمليات موضوعية إنسانية، لا تحدُّ من ذات الفرد وأهميته، بل على العكس تماماً فهي تفتح أمامه إمكانات هائلة وغير محدودة.

ولقد أكد ف. إ. لينين مُشيراً إلى التعلق البورجوازي بالملكية الخاصة إذ كتب:

---

[27] غوركي م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 6، موسكو 1950. ص529.

[28] نفس المرجع السابق ص531.

[29] غوركي م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 6، موسكو 1950، ص531.

obeikandl.com

«... إن الملكية الخاصة تفرق بين الناس، وتكون الخلافات، وشعور الحسد والكراهية والاستغلال، وتحوِّل الناس إلى وحوشٍ ضارية، أما العمل فيوحد الناس ويمتن علاقاتهم[30]».

ويدرك العمال جيداً أن قوتهم في وحدتهم وتضامنهم، كما يدركون أن هذه الوحدة تتطلب التنظيم الصحيح، وإلا سيكون كل شيء دون جدوى وبالتالي سيفشلون في نضالهم، وها هو ذا يا غودين، يعلن عن ضرورة الوحدة للنصر إذ يقول: «فلنتوحد ونحاصر الأعداء، ونُضيِّقُ الخناق عليهم، وينتهي الأمر كلياً. ويقول ريابتسوف بافتخار أمام الشُّرطي الممثل للسلطة القيصرية «نحن جميعاً ـ رفاق[31]».

ومن خلال عرض مَسرحية «الأعداء» نرى أنَّهُ لم يعتنق الأفكار الاشتراكية ويستوعب نظرياتها إلا الجزء اليسير من العُمال، ولكن هذا القسم البروليتاري الواعي كان يُدرك أنَّ جميع الكادحين يقفون إلى جانبهم، وكان العمال البلاشفة على ثقة بأن البروليتاريا الروسية بأكملها سوف تلبي نداءاتهم وهذا واضح من كلمات سينتسوف الذي يرد على ادعاءات الشرطي القائل: «إن عددكم قليل» بقوله: سوف نزداد بسرعة... انتظروا قليلاً[32].

ورغم هذا التقويم الحاد لتلك العادات والتقاليد المتخلفة والمتجسدة في نفوس وطبيعة ووعي الجماهير، والنقد لفقدان البصيرة والإغراق في الجهل، فإن غوركي كان على ثقة تامة، بأن الفكر التقدمي سوف ينتصر في نهاية المطاف، الذي سوف يتوصل إلى عقول جميع فئات الشعب، وبشكلٍ أساسي إلى الشعب الكادح الذي يشكل قوةً تاريخيةً هامة، من شأنها أن تستوعب هذه الأفكار، وكان غوركي على ثقةٍ أن الأفكار التقدمية سوف تساهم بدورٍ

---

[30] لينين ف. إ. المؤلفات الكاملة، المجلد 41، ص356.

[31] غوركي م. في 30 مجلد، المجلد 6، موسكو 1950، ص538.

[32] نفس المرجع السابق، ص536.

obeikandl.com

كبيرٍ في تطوير العلاقات بين الشعوب، وستساهم في إنجاز عملية التقارب والتعاون المتبادل والصداقة بين كافة شعوب العالم.

إن الميزات الجديدة للطبقة العاملة توفر المقدمات اللازمة للكاتب غوركي الذي يُعبِّرُ عن ثقته الكاملة في النصر الآتي والقريب للكادحين، فيقول سينتسوف لناديا: إن العمال نادراً ما ينتصرون، ولكن حتى تلك الانتصارات الصغيرة ترضيهم لدرجة كبيرة...

ـ ناديا: هل أنت تحبهم ؟

ـ سينتسوف: إنني أحبهم جداً، لقد عشت معهم طويلاً وأعرفهم جيداً، وأدرك قواهم وقدراتهم.. واثقٌ بعقلهم المبدع الخلاق..

ـ تاتيانا: وتؤمنون بأن المستقبل لهم؟

ـ سينتسوف: أؤمن بهذا أيضاً[33].

وفي عرض الكلام عن نشاط عمال النسيج، وحياتهم وظروف عملهم يؤكد مكسيم غوركي على جواب سينتسوف لتاتيانا إذ يقول: «هؤلاء الناس هم الذين سينتصرون».

بالإضافة إلى اللوحة العامة التي يصورها غوركي للطبقة العاملة وأوضاعها ككل، نجده يتوقف وبهدوء عند عكس بعض الصور الخاصة للأفراد وخاصة للعمال الذين يلعبون دوراً هاماً في النشاط الثوري، ويقومون بدورٍ تنظيمي في الحزب البلشفي ومن هؤلاء غريكوف ـ المنظم النشيط بين أوساط العمال الشباب وليفشين، الذي قَدِمَ إلى المدينة من أسرةٍ فلاحيةٍ ريفيةٍ، وحاول في بداية الأمر أن ينشر «أفكاره» الخاصة به، والتي تدعو إلى عدم المبالاة بالدراهم، والملكية وما إلى ذلك.

لقد اعتقد ليفشين أنَّ الملكية الخاصة من أكثر الأمور التي تخلق المشاكل والخلافات بين الناس، يتعرف ليفشين فيما بعد إلى بعض العمال الواعين، مما

[33] غوركي، المؤلفات الكاملة 30 مجلد، المجلد 6، موسكو 1950، ص504.

obeikandl.com

أدى إلى أن يتعرف بعض الأفكار والمنشورات الثورية، التي ساعدته في إيجاد طريقة في الحياة، فاعتنق الأفكار الاشتراكية وأصبح ثورياً واعياً يعمل بنشاط إلى جانب ياغورين، أكيموف وريابتسوف.

في مسرحية (الأعداء) أبرز غوركي الاتحاد الواعي بين الأفكار الاشتراكية والحركة العمالية، وترسيخ هذه الأفكار في وعي الكادحين، وتطور الثقافة الاشتراكية، حتى أصبح العمال يفهمون الحياة ويقومونها على أسس النظريات العلمية ويدركون أنه من خلال التغيير الثوري لتلك الظروف الصعبة والقاسية من الممكن الوصول إلى حقوقهم المغتصبة خلال عشرات السنين، وفي هذا بالذات تنحصر الناحية التجديدية في المسرحية، التي تعتبر بمثابة حجر الأساس لهذا المذهب الأدبي الواقعي الثوري ـ أدب الواقعية الاشتراكية.

رواية الأم:

أما في رواية «الأم» التي صدرت عام 1907، والتي ترجمت إلى العديد من اللغات العالمية، حتى أصبح من الصعب إيجاد لغة لم تترجم رواية الأم إليها، في هذه الرواية أبرز غوركي التلاحم العضوي بين النضال العمالي الثوري من جهة وأفكار الاشتراكية العلمية من جهةٍ أُخرى، بعد أن تمكَّنَ العمال من تجاوز الانتفاضات الشَّعبية العفوية وغير المنظمة.

وبمجرد صدور هذه الرواية احتدم النقاش بين مختلف النقاد والكتاب والفلاسفة، ولقد قوم فلاديمير إيلتش لينين هذه الرواية تقويماً عالياً إذ قال عنها: «إن هذه الرواية ضرورية وهامة للغاية من ناحية المعاصرة بدرجة كبيرة»، وتستمد هذه الرواية أهميتها من كونها وضعت إحدى المسائل الهامة بالنسبة لتلك المرحلة، وهي إبراز نمو الوعي لدى العُمال وتحولهم من النشاط العضلي القائم على الحاجة الاقتصادية، إلى النشاط السياسي الواعي، ولقد عكس

obeikandi.com

غوركي بشكلٍ أساسي ليس الوضع الاقتصادي الصعب بالنسبة للطبقة العاملة وكافة الكادحين فحسب، بل تناول بشكل أساسي قضية النضال الاجتماعي للعمال، والعمل الدعائي للتوعية في أوساطهم، ونشر الأفكار الاشتراكية ـ أفكار توحيد النضال العمالي من أجل المستقبل الأفضل والحياة السعيدة مع التعاليم الاشتراكية، ولقد وضَّحَ غوركي خطة النضال من أجل الثورة الاشتراكية في مَشهد المحكمة، عندما يُعلن العامل فلاسوف الذي اختار لنفسه طريق النضال الثوري حتى أصبح مُحترفاً، إذ يقول باسم رفاقه العمال: «نحن اشتراكيون... شِعاراتنا واضحةً وضوحَ الشَّمس، وبسيطة للغاية ـ تسقط الملكية الخاصة، جميع وسائل الإنتاج ـ للشعب، وكل السلطة ـ للشعب...[34]».

البطل الأساسي في الرواية هو الثائر بافل فلاسوف، ممثل الطبقة العاملة الذي كان على ثقةٍ كاملةٍ بأن نضالهُ هذا من أجل العدالة والحريَّة والقضاء على الاستغلال والاضطهاد سوف يكلل بالنجاح، وأن قضية البروليتاريا سوف تحقق النصر النهائي، فيقول لرجال المحكمة القيصرية: «إننا نقف ضِدَّ المجتمع الذي يهمكم أمر الدفاع عنه، وأننا نَكِنُّ شعور العِداء والكراهية لهذا النظام ولكم، ولن يكون بيننا أي صلح كان، ما دمنا لم ننتصر، وأننا سوف ننتصر، نحن العمال[35]».

إن العلاقة المتينة مع العمال توطد الثقة في قلوب المثقفين الثوريين في النصر وإحدى الشَّخصيات الأساسية في الرواية هي صوفيا التي تعلن عن رأيها قائلة: «إننا سوف ننتصر لأننا نقف صفاً واحداً مع الشعب العامل[36]».

وعند الكلام عن الثقة الكبيرة التي كان غوركي متشبعاً بها حتى النهاية في مصير روسيا الوضاء، وسعادة شعبها في المستقبل، نرى أنه من الضروري تذكر

---

[34] نفس المرجع السابق، المجلد 7، موسكو 1950، ص486.

[35] غوركي م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 7، موسكو 1950، ص486.

[36] نفس المرجع السابق ص364.

obeikandi.com

كلمات نيقولا إيفانونيتش، الذي تنبأ قائلاً:

«يا لهم من أناس طيبين! إنِّي أتحدَّثُ عن العمَّال الشباب، الشُّجعان والأقوياء، والمتعطشين لإدراك كل شيء، واستيعاب المفاهيم الجديدة، تنظرُ إليهم وترى: أنَّ روسيا سوف تُصبح أكثر دولةً ديمقراطيةً على وجه الأرض[37]».

ولقد أبرز مكسيم غوركي ببراعة، أن انخراط الجماهير الشعبية في النضال الثوري يُفسَّر بالواقع التاريخي، وأنَّ الحياة قد قدَّمَت جماهير العمال، الثوار الحقيقيين، والقادة البارعين والمضحين بلا حدود من أمثال بافل فلاسوف، أندري ـ ناخودكا، فيسوفشيكوف، ريبين، وغيرهم.... وإنَّ المعرفة الواقعية الفنية للحياة تظهر بشكل دائم بموضوعية عكسها، والتصوير الواقعي، وهذه هي الميزة العامة والجوهرية للواقعية كمذهب أدبي، وقد أشار مكسيم غوركي إلى هذا عن حق، عندما قال: «الواقعية ـ هي التصوير الموضوعي للواقع[38]».

هذا وقد صور مكسيم غوركي الطبقة العاملة ليس كقوةٍ محطمةٍ ومهدمةٍ للأنظمة السائدة في العالم القديم، ولكن كقوة بناء كبرى لصرح المجتمع الجديد على أساس العلاقات بين النَّاس، ويدرك الناس الكادحون مع كل يوم جديد في نضالهم، إنَّهُ من أهم الأمور لانتصارهم هي الوحدة، لأنَّهم يعرفون جيداً بأن نجاح مسيرة نضالهم يرتبط إلى حدٍّ بعيدٍ بالوحدة، وتراص الصفوف. ويقول بافل فلاسوف لرفاقه ما يلي: «إننا لم نحقق النجاحات المرجوة، ما دمنا لم نشعر بأنفسنا موحدين، إننا رفاق طريقٍ طويل، وأسرة أصدقاء واحدة، نرتبط ببعضنا البعض بروابط وثيقة، تتمركز في الرَّغبة الكبيرة في مُتابعة النضال من أجل حقوقنا[39]».

---

[37] غوركي م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 7، موسكو، 1950، ص364.

[38] مسائل الواقعية في الأدب، موسكو 1962، ص95.

[39] غوركي م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 7، موسكو 1950، ص246.

obeikandl.com

وقد تعاظم طموح العمال من أجل الوحدة، وبشكلٍ خاصٍّ، بعد المحاكمة التي أجريت لبافل فلاسوف ورفاقه، وإنَّ أفكار النضال الثوري، والنضال نفسه يوحِّد العمل في أسرةٍ واحدةٍ كبيرةٍ مُتحابة.

ومن هذا يتضح، بأنَّ مسائل وحدة العالم، ووحدة الفرد والمجتمع يتمُّ تحليلها من قبل غوركي بشكلٍ يختلف تماماً عن الصُّورة التي حَلَلَ بها كل من تشيخوف وتولستوي ودستويفسكي وغيرهم من كُتَّاب الواقعية النقدية الروسية والعالمية.

أعار مكسيم غوركي اهتماماً كبيراً لموضوع الأُمميَّة، التي من دونها من المستحيل أن يتم النضال الثوري الناجح للعمال من أجل حقوقهم المشروعة، ولقد أجمع النُّقاد على أن «الحل الجديد لموضوع الوحدة للعالم هو توحيد جميع سكان العالم، والبعث الحقيقي للإنسانيَّة، وقد طرح على شكلٍ ملحميٍّ موسَّع ومن جميع الجوانب في رواية «الأُم» وتمَّ التأكيد في هذه الرواية على شكَّلَ الوحدة الأخوية المقبلة لأناس العمل في جميع أنحاء العالم، عندما ستصبح كل الإنسانية أسرةً واحدةً، ويعمُّ التفاهم بين الجميع، ويعتنى كل فرد بالجميع والجميع بالفرد كما تعتني الأم بأطفالها، و يصبح هذا التعاون المتبادل بمثابة البداية الشاملة والقانون المقبل للحياة[40]».

ومن خلال الرواية يتعرف القارئ إلى ناحيةٍ هامةٍ أُخرى، وهي أن التضامن بين جميع الكادحين في شتى أنحاء العالم، والمناضلين ضِدَّ العدو المشترك ـ الرأسمالية، هي من أهم القضايا في الحركة الثورية العالمية، ويُعبِّر أندري ناخودكا عن هذه الفكرة في الرواية كما يلي: «بالنسبة لنا، لا نفرق بين قومية وأخرى، أو قبيلةٍ وقبيلةٍ، وواقع الأمر يدلُّ على أنه يوجد رِفاق، ويوجد أعداء، جميع العُمال ـ رفاقنا، وجميع الأغنياء، وجميع الحكومات الظالمة ـ أعداؤنا[41]».

---

[40] مسائل الواقعية في الأدب، موسكو 1962، ص95.

[41] غوركي م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 7 موسكو 1950، ص221. 222.

obeikandl.com

وامتازت هذه الفكرة بأهمية كبرى في تلك الآونة مِنَ الزَّمن.
(في بداية القرن العشرين) وما تزال هامة للغاية في أيامنا المعاصرة (في نهاية القرن نفسه) وإن دلَّ هذا على شيءٍ فهو يدلُّ على بعد نظر الكاتب في طرحه لهذه المسألة الهامة.
وثمة مسألة أُخرى تميِّز نتاج غوركي «الأم» عن غيرهِ من النتاجات الأدبية الأُخرى، وهي أنَّ غوركي قد تمكَّنَ وبعبقريةٍ فذَّة من أن يزرع الأمل في نفوس الكادحين رغم الظلمة المسيطرة على روسيا القيصرية، ولكن هذا الأمل لم يكن مُجرد شعار يَطرح، بل يقوم على التحليل العلمي الواقعي، ولقد أجمع النَّقد الأدبي السوفييتي على ما يلي: «مما يُميِّز غوركي عن غيرهِ من الكتاب تلك التنبؤات المتفائِلة عند التعامل مع النَّاس من حولهِ، وبث الإمكانات والقُدرات المُتعددة في أَنفسهم وذواتهم، فداخل الإنسان يوجد الكثير من القضايا الخفية الكامنة، والهامَّة والممتعة والقيمة، وينفرد غوركي عن غيره من الكُتَّاب باكتشاف وتفجير تلك الينابيع النقية لاستمرارية الحياة[42]».
وعلى خِلاف الكتاب الآخرين، يعكس مكسيم غوركي، وبشكلٍ جديدٍ العلاقات المتبادلة بين الطَّبقة العاملة والفلاحين، فالعمال في نتاجاته الأدبية، هم مُنظمون حقيقيون، ودُعاة مبادئ بين الفلاحين في الريف المترامي، فهم ينشرون في أوساط الفلاحين أفكار الاشتراكية بواسطة المنشورات والكتب والكراسات، ويخطبون في الاجتماعات الجماهيرية، واللقاءات، ويسافرون بكل إرادتهم، بل وبرغبةٍ كبيرةٍ إلى القرى البعيدة من أجل العمل بين الفلاحين في شتى الأعمال الزراعية، وانطلاقاً من إدراكهم لضرورة الوحدة المتينة بين العُمال والفلاحين، يقومون بعملٍ كبيرٍ في مجال التوعية في القرى، داعين الفلاحين للانخراط في النضال الثوري.
ومن الممتع في مجال الأدب أن يأخذ الفلاح صورةً جديدةً تختلف عن الصور

[42] تاريخ الأدب الروسي. السوفييتي، في 4 أجزاء، المجلد 4، موسكو (ناؤوكا) 1971، ص200.

obeikandl.com

الكلاسيكية التي تعودنا أن نراها خلال العقود الماضية، ولقد تمكَّنَ غوركي أن يبدع إلى جانب ما أبدعه في تصوير البروليتاريا صوراً رائعة للفلاح الذي بدأ يتعلم أبجدية النضال الثوري، فمن خلال شخصية الفلاح ميخائيل ايفانوفيتش ريبين نتعرف إلى فلاح ثائر، من نوعٍ جديدٍ، ولم يسبق الكلام عنه على هذا الشكل الذي تكلم عنه غوركي، لا في الأدب الروسي، ولا حتى في الأدب العالمي ككل، لقد عاش ميخائيل ايفانوفيتش في وسطٍ عماليٍّ ثوري وأصبح بالتدريج يستوعب تلك الأفكار المطروحة أمامه، وفهم الكثير، حتى أضحى إنساناً آخر تماماً، من حيثُ الوعي والسلوك، إذ تمكن وخلال فترةٍ من الزَّمن أن يوحِّدَ بين الأفكار الثورية المكتسبة وبين طبيعة الفلاحين الشُّجاعة، ليكون من ذاته، فلاحاً ثائراً من طرازٍ جديدٍ، ولم يتوقف عند هذا، بل عاد إلى القُرى الفلاحية حاملاً في عقله وقلبه حقيقة الحياة، ويصرِّح لرفاقهِ قبل عودته إلى الرِّيف قائلاً: «سوف أذهب بعيداً وحيداً إلى القُرى والدساكر استحث الهمم حتى يثور الشَّعب، يجب أن تصل الحقيقة إلى الشعب، وعندما يدرك هذه الحقيقة فهو يجد الطريق السويَّة دون شك، وسيفتحها بنفسه[43]».

وعبر الرواية بأكملها يتتبع القارئ ذلك الخيط الأحمر الذي يتنامى باستمرار ويتوهج مُعلناً تكون الإنسان الجديد، إنسان العمل البروليتاري الثائر، وهذه المسألة تنعكس بوضوحٍ من خلال شخصيتي بافل فلاسوف وأمِّهِ بيلاغيا نيلوفنا. أما بالنسبة للأم التي عكسها غوركي فهي نموذج جديد ليس في الأدب الروسي فحسب، بل في الأدب العالمي ككل، وهذا لأنَّ الشخصية الأدبية تمثل على الواقع العملي «ظاهرةً تاريخيةً محددةً» إذ تمثل جميع النِّساء من الوسط العُمالي في مرحلة الثورة الروسية الأولى، ولكن هذه «الخصوصية» التي تمتاز بها الأم نيلوفنا، شملت ملايين النِّساء في شتى بلدان العالم، وينطبق على مصير عشرات الملايين في الوقت الحاضر في الكثير من القارات، وخاصة في تلك

[43] غوركي، م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 7، موسكو 1950، ص277.

obeikandl.com

الأماكن، التي تعاني فيها المرأة ـ الأم حتى الوقت الحاضر من الاضطهاد والاستغلال والآلام والمصائب، والحرمان وعدم المساواة، وتوجد ملايين النساء اللواتي يفتخرن افتخاراً عظيماً بأبنائهن، الذين ينذرون أنفسهم لقضايا الدفاع عن الوطن والحرية وسعادة شعوبهم، يفتخرون بالأبناء الذين يقدمون حياتهم ضحيةً للدفاع عن الحقيقة المثلى، ومن خلال العنوان الأساسي للرواية «الأم» يتم التأكيد على المغزى الإنساني الواسع الذي أراد غوركي أن يجسدهُ في صفحات عمله الأدبي الرائع، إذ صنع من شخصية نيلوفنا، الإنسانة البسيطة والأميَّة، مناضلة عنيدة تضحي بأغلى ما لديها من أجل انتصار قضية الشَّعب العامل في الحرية والمساواة والعدالة، وأراد غوركي من هذا كله أن يمجد هذه البطولة للأمهات أمثال نيلوفنا، ويكتب أسماءهن بأحرف من ذهب على صفحات تاريخ الإنسانية.

لقد أبرز مكسيم غوركي كيف من الممكن أن تتم تربية الإنسان العامل، وتطويره بالتدريج وتثقيفه حتى يصبح مُناضلاً ثورياً يؤمن إيماناً كلياً وغير قابل للتغيير بضرورة النضال الطبقي، ويقوم بدورٍ فعَّالٍ في هذا الصراع، ويدرك المسؤولية الشخصية المُلقاة على عاتقهِ من أجل تغيير العالم والقضاء على النظم الجائرة السائدة في الكثير من جوانبه، لقد كانت نيلوفنا لا تجيد القراءة والكتابة، لأن الهموم قد أثقلت كاهلها، وأنهكت الأعمال القاسية قواها كما أنهكت أجسام الكثيرات من النِّساء أمثالها في روسيا القيصرية، فأدركت من خلال ما شاهدته أن الحق إلى جانب ابنها ورفاقه المناضلين، ولهذا قد كرست ما تبقى من حياتها لمسألة النضال من أجل نصرة الحقيقة، ونلاحظ الوعي الجديد المكتسب للإنسان الجديد في كلماتها: «خسئتم ألم تقتلوا الروح المتفتحة المنيرة، ولم تغمروا العقل بالقهر، وبحار الدماء لا تُطفي نور الحقيقة[44]». لقد انتشرت كلمات الأم في شتى أنحاء العالم، وارتفع الصدى المدوي لصوتها

[44] نفس المرجع السابق، ص516.

فوق جبال ووديان وسهول وبحار ومحيطات الكرة الأرضية، وأيقظت الكادحين، واستنهضت الهمم من أجل تصعيد النضال الثوري، وهذه الكلمات نفسها تقريباً تكررت على لسانِ بطلة الفيلم الجزائري المعروف باسم «رياح من الأوراس الذي عُرض على الشاشة عام 1967، والذي حاز في المهرجان السينمائي الدولي الخامس في موسكو إحدى الجوائز الأساسية المخصصة للمهرجان.

وتمثل رواية «الأم» مرحلة جديدة مِن تطوُّر المدرسة الواقعية، إذ يبين مكسيم غوركي فيها الأهمية التاريخية وضرورة النضال الثوري لكادحي العالم بأسره ضد عالم الرأسمالية والأنظمة الوحشية الاستغلالية التي تطبقها الإمبريالية في شتى أنحاء المعمورة، وضرورة القيام بهذا العمل النضالي حتى انتصار الثورة الاشتراكية، وتعتبر هذه الرواية خير شاهد على ولادة الأدب البروليتاري الجديد، الذي سُمِّيَ فيما بعد بأدب الواقعية الاشتراكية، ورسَّخَ أُسس مذهب الواقعية الجديد نوعياً، وخاصةً أنَّ هذا المذهب يمتاز بالأفكار الفنية الجديدة، والمبادئ العملية لاكتشاف الواقع بجوانبه العديدة: تصوير الحاضر في تطوره الديناميكي نحو الثورة الاشتراكية.

إن هذه الرِّواية قد وفرت الظُّروف لظهور الأبطال الجُدد والأساسيين في الأدب الفني الروسي، وهؤلاء الأبطال كانوا من العمال الثوار، الذين يروا أن معنى الحياة يقوم على شرطٍ أساسيٍّ وجوهري، هو النِّضال من أجل انتصار الأفكار والمبادئ الاشتراكية.

إن رواية «الأم» كانت ظاهرةً فريدةً من نوعها، ومبادرةً شجاعةً للغاية من حيثُ المضمون الفكري والشَّكل الأدبي الفني، ليس في الأدب الروسي وحده، بل في الأدب العالمي ككل في بداية القرن العشرين، هذه الرواية قد عكست حياة ونضال إنسانٍ جديدٍ غير معروف في الأدب العالمي، حياة الإنسان العامل المسحوق، الذي يحمل على كتفه عبء الحياة القاسية في ظُروف الإنتاج التي لا

تُطاق، الإنسان الذي صادف له أن يعيش مرحلةً تاريخيَّةً عصيبةً في ظُروف سلطة الحكم القيصري الديكتاتوري الأَسود، ويعاني من وحشيته الرَّأسمالية الجَّشعة هذهِ الرواية عن الإنسان الثائر الذي لا يَتعب ولا يَكل ولا يَتخاذل أمام هذا النظام، وبنفس الوقت، كانت هذهِ الرواية تصويراً خلَّاقاً لمثل الإنسان الجديد، باني النظام العادل الجديد، وبحكم القوانين التاريخية الموضوعية، نجد البطل يُمارس نشاطهِ كمنتصرٍ دون أيِّ شكٍّ أو تردٍد، لأن الوعي الاشتراكي يحوِّل الجماهير العمالية إلى جماعة مُتكاتفة مُتراصة وموحدة كُلياً، وفي هذا المجال نجد رواية «الأم» تمتازُ بأهميةٍ تاريخيةٍ غير محدودة.

كما تمتازُ هذه الرواية بالعديد من السِّماتِ الأساسية، التي تجعلها تحتل مركزاً هاماً في مكتبة الأدب العالمي، وتتسم بكثيرٍ من الميزات، التي تجعلها خطوةً جديدةً إذا ما قورنت مع نتاجات أناتولي فرانس، رولان، جاك لندن، وغيرهم، وفي هذهِ الرِّواية يَجري تنسيق بين الكراهية للنظام الرَّأسمالي، والإدانة الصَّارخة لهُ مع النِّضال المتتابع والموجَّه للقضاءِ على هذا النِّظام الجائِر[45]».

لقد أبرزت نِتاجات مَكسيم غوركي، القُدرة الكبيرة التي تتمتع بها الثقافة التي تعكس نضال البروليتاريا، وأثبتت جدارتها في استقطاب انتباه القراء في جميع أنحاء العالم، وكان هذا هامَّاً للغاية في الوقت الذي كان فيه الأدب الواقعي الاشتراكي يناضل لترسيخ وتدعيم مواقعه في مواجهة الأدب البورجوازي، كان هاماً من وجهة نظر التطور الفني للأدب الاشتراكي، الذي كان آنذاك غير كافٍ في الثقافة الفنية من أجل عكس أعماق وقدرات الواقعية في تصوير الواقع الحياتي والاجتماعي من كافة الجوانب، وجاء في تاريخ الأدب الروسي، في مَعرِض الكلام عن نتاجات مكسيم غوركي ما يلي: «لقد تمكَّنَ الكاتب البروليتاري غوركي من تصوير العالم الواقعي تصويراً

[45] تاريخ الأدب الروسي السوفييتي في 4 أجزاء، المجلد 4، موسكو (ناؤوكا) 1971، ص156.

obeikandl.com

رائعاً وخلَّاقاً وموضوعياً، والعالم الداخلي للإنسان وتطورهِ مُتعدد الجوانب، مِمَّا ساهم في تكوين الأُسس المتينة لتطور الأدب الواقعي الاشتراكي والثقافة الاشتراكية عامة[46]».

وهذا الجانب من المسألة يُفقد أهميتهُ مع مرور الزَّمن، فحتى الوقت الحاضر ما زال يحظى باهتمام الكتاب والنقاد على حدٍّ سواء، كما يمتاز طريق غوركي بخصائصٍ فريدةٍ من نوعها، إذ تمكَّنَ وبسرعةٍ فائقةٍ من الوصول إلى درجة عالية من الثقافة وإغناء نتاجاته الأدبية المختلفة بصورٍ أدبيةٍ فنيةٍ خلَّاقة، ذات مغزى عميق، قلَّما نجد مثلها في الأدب العالمي.

لقد أبرز مكسيم غوركي، ماذا يعني الفن الواقعي، الذي تمكن من استيعاب وعكس الأفكار العظيمة التقدمية لتلك الفترة من الزمن، وأظهر الإمكانات الكبيرة للبعث الثقافي، وتجديده على أساس العلاقات الفكريَّة مع الأفكار الثوريَّة الماركسية، ومع نضال الطبقة العاملة من أجل الاشتراكية.

وكما هو مَعروف، إنَّ الفترة الممتدة بين التحضير للثورة الاشتراكية، وبعد انتصارها بقليل كانت بالنسبة للكاتب مكسيم غوركي مرحلةً صعبةً للغاية، ومعقدةً نسبياً، ولكن النُّقاد الاشتراكيين في مَجال السِّياسة والأدب ساعدوا غوركي على اجتياز هذه الصعوبات، والتخلُّص من الأخطاء التي كاد يقع فيها عند تقويم الثورة.

عمل آل أرنامونوف:

ومن النِّتاجات الأُخرى للكاتب مكسيم غوركي، التي كتبت بعد قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية، والتي تحتل مكانةً هامةً في تُراث الكاتب ككل، كانت روايتا (عمل آل أرتامونوف) و(حياة كليم سامغين)، ومسرحيتا (إيغور بوليشتيف) و (داستيفايف وآخرون)، من أهم الأعمال الأدبية، التي ساهمت في

[46] نفس المرجع السابق، ص115.

obeikandi.com

تطوير مدرسة الواقعية الاشتراكية.

ففي قِصَّةِ «عمل آل ارتامونوف» يتعرض الكاتب لموضوع الانحطاط الاجتماعي للطبقة البورجوازية، وتدني القوة الإبداعية للبرجوازية من جيل لجيل، وتعاظم الخوف والرُّعب من المستقبل الآتي، والشُّعور المبهم بأن الأرض تميد تحت أقدامهم، وما إلى ذلك من مشاعر القلق والخوف والرعب، الذي يفقد البورجوازيين أصحاب المصانع، ومن بينهم آل ارتامونوف الثقة بالنفس كمالكين حقيقيين، وليس هذا فحسب بل أن التفاهة والحقارة الروحية، وضعف الإرادة تظهر عند أكثر مُمثلي سلالة آل ارتامونوف شجاعة وقوة، وعلى وجه الخصوص عند ابن الأخ إيليا ألكسي، بغض النظر عن الاجتهاد الكبير الذي يبذله لإخفاء هذا الضعف.

وفي معرض الكلام عن أجيال أرتامونوف، خلال فترةٍ تزيدُ عن ستين عاماً، أبرز غوركي مسيرة التاريخ التي لا تعود إلى الوراء، وقوانين التطور الاجتماعي في الحياة، وسيكولوجية الأفراد، والعالم الأخلاقي لممثلي المجتمع البرجوازي.

إن رواية (عمل آل أرتامونوف) قد أظهرت بوضوح ومن جديد، القدرة الفنية الإبداعية الرائعة لمكسيم غوركي، وخاصةً في مجال الوصف المتنوع الأشكال لمختلف الشخصيات في الرواية، والتحليل العميق جداً للظواهر الاجتماعية المتعددة والإمكانات الكبيرة والسيكولوجية ـ الاجتماعية لهذه الرواية من نوع جديد، كل هذا أدى إلى أن تحتل هذه الرواية مكاناً بارزاً في النتاج الأدبي عامة في فترة العشرينات من القرن العشرين.

ولقد شغل المثقفون من الطبقة البرجوازية الصَّغيرة والذين ابتعدوا عن سبل الثقافة واقتربوا من المصالح الرَّأسمالية قسطاً هاماً من نتاج غوركي، الذي أبدع بتصوير مُمثلي هذه الجماعة من المثقفين البرجوازيين من ذوي العوالم الروحية الخيالية، والاهتمامات المنحطة، ومن هؤلاء كان بولكانوف أحد شخصيات غوركي في نتاج (فارنيكا أوليسوفا)، الذي يمثل الشَّخصية

النموذجية الكلاسيكية للبورجوازي الصَّغير والعميل المحتمل لكليم سامغين في رواية (حياة كليم سامغين)، وبالإضافة إلى الأهمية الكبيرة، التي تمتاز بها الرواية من النواحي الاجتماعية، والثقافية والجمالية، فإن الرواية تشكل نقطة انطلاق هامة في معارضة الاتجاهات العصرية، التي برزت في الأدب في بداية القرن العشرين، والتي مجدت إلى أبعد الحدود، وبقياساتٍ خياليةٍ بعيدة المجال عن عوالم الروح الفردية، ونجد أن رواية غوركي تتضمن خطين أساسيين: أحدهما ـ تاريخ يقظة الفكر الاجتماعي الحديث، والبحث المستمر والحثيث عن جذوره الحقيقية، في تاريخ الشَّعب وتجليه بصورٍ متناقضةٍ تتجه إلى الإبداع التاريخي الهام، وثانيهما ـ يعري وباستمرار تشوه وفقر عالم سامغين الداخلي، وضَعفِ مسألة (اكتساب المعرفة) والانحطاط الذاتي ـ وما إلى ذلك من ميزات المسرحيات التي تعكس التراجيديا الكوميدية للفرد الذاتي.

وفي هذا المجال نرى أنه من الممكن الإشارة إلى أن غوركي، في الوقت الذي تناول فيه هذه القضية في مرحلة جديدة، قام بالكشف عن أبعادها بشكلٍ واضحٍ كلياً، وطرح العديد من المسائل الجديدة، وعمَّقَ السمات والصفات الأساسية لها، وطوَّرَ بعض جوانب النتاجات الأدبية السابقة.

حياة كليم سامغين:

ولقد قوم أ. ف. لوناتشارسكي تقويماً عالياً أهمية هذا النتاج الأدبي إذ كتب: إن البانوراما العريضة المتحركة لهذه العقود من السِّنين الأخيرة قد وجدت لها انعكاساً كبيراً من خلال الأحداث التاريخية، خلال فترة الأربعين عاماً التي سبقت ثورة أكتوبر التاريخية، بكل ما تحتويه الحياة الروسية من تناقضاتٍ شديدةٍ ترافقت مع الصراع الفكري الاجتماعي للعصر، ويدين مكسيم غوركي في رواية (حياة كليم سامغين) الفردية البورجوازية المتمثلة في «سامغين» وغيره من، الذين يرمزون إلى ذلك القسم من المثقفين البرجوازيين،

والذين حاولوا الانضمام إلى الحركة الثورية في مرحلة النهوض الثوري من أجل تمريق مصالحهم، وخانوا قضية الثورة بعد فترةٍ وجيزةٍ[47]».

وينشب بين سامغين وأمثاله من جهةٍ وبين الثوار الحقيقيين أمثال البلشفي ستيبان كوتوزوف صِراعاً عنيفاً، يؤدي إلى انتصار الفريق الثاني على سامغين وأمثاله. وتكشف الرَّواية عن أعماق التناقضات للواقع العملي، من خِلال التطور الثوري الذي يعمُّ أغلب جوانب الحياة.

إن سامغين عبارة عن قناعٍ رهيبٍ ومخيفٍ، مشبع بالذاتية والأنانية القاتمة، يمثل أمامنا ومن خلال شخصيتهِ فراغاً روحياً قاتلاً، وليس مُصادفة أن يرتعد جسم سامغين خوفاً أمام كل مَشهدٍ مُثيرٍ يراه، ويشتعلُ حِقداً عندما يرى الميزات الإنسانية العالية في الناس وخاصةً الطموح المبدئي، ويُحسد حسداً غريباً (الإنسان الكامل) الذي يمثِّلهُ البلشفي كوتوزوف، ويغارُ جداً من جمال ماكاروف، وافتخار الشُّجعان، ومثالية ليوتوف، وحيويَّةِ فارفاركا.

والشَّخصية المضادة في رواية (حياة كليم سامغين) للبطل الأساسي سامغين، هو ستيبان كوتوزوف ـ البلشفي المنظر ـ قائد الكادحين الثائرين، والمساهم بفعاليةٍ في أعمال الثورة ويخافه سامغين خوفاً كبيراً، لأنَّهُ يرى في تصرفات وأحاديث كوتوزوف خَطراً مُحدقاً يهدِّدُ مصيرهُ ومصلحتهُ الاقتصادية كما يهدد مصلحة أمثالهِ من أصحابِ المشاريع. ومع تطور الأحداث، ومع كُلِّ حدثٍ جديدٍ في التاريخ نجد أن معسكر كوتوزوف ينمو باستمرار، وتتسع دائرة أنصار الفكر الثوري، وأن الفكر الملحمي، الذي يُجسدهُ غوركي في نتاجه الروائي (حياة كليم سامغين) يؤدي إلى الإيمان بفكرةٍ واضحةٍ وأكيدةٍ مَفادَها: أن النصر الفكري والأخلاقي للأبطال الإيجابيين في هذه الرِّواية من أَنصار كوتوزوف، يؤدي إلى نصر الفلسفة الثورية الإنسانية الجديدة على الأيديولوجيَّةِ الخاطئة وعلى الأعراف الأخلاقية المنحطَّة للمجتمع البرجوازي.

---

[47] أنظر لوناتشاركسي أ. ف، المؤلفات الكاملة، المجلد 2، ص164، ص197.

obeikandl.com

ايغور بوليتشيف وآخرون:

أما في مَسرحية «إيغور بوليتشيف»، وآخرون في مَسرحية «دوستيغايف وآخرون» نجد أن الكاتب غوركي قد اتجه نحو جانب آخر من الحياة في ظروفِ الثَّورة، وينحو نحواً خاصَّاً في فَهم الواقع وعكسهِ من وجهة نظرٍ فنيَّةٍ تخدمُ إظهار عدم التطابق بين مصالح البرجوازية ومصلحة الثورة، ويبرز الضَّعف السياسي والانحطاط الخلقي للبورجوازية، ويصور غوركي التاجر بوليتشيف في لحظةٍ حرجةٍ مُعقدةٍ من حياتهِ، عندما تَختبر مسألة وعيهِ الطبقي، والوعي الاجتماعي. وتبين المسرحية عدم التلاؤم بين المصالح البرجوازيَّة، وكل المجتمع الرأسمالي من جهة، والمصالح الشَّعبية لكافة الكادحين من جهةٍ أخرى، فيقول بوليتشيف ذات مرَّةٍ، وهو يفكِّرُ بمعنى الحياة: (لقد عُشت وعُشت، وكنت دائماً أتساءل مُخاطباً نفسي: لماذا أنتَ تعيش؟ وأيَّة حقيقةٍ أُخرى تنشدها في الحياة؟[48]»

ويؤدي تطور النِّزاع الداخلي إلى تصعيد الإمكانية لنضوج المرحلة الانعطافيَّة في عالم البطل الدَّاخلي، وأنَّ الصِّراع الداخلي الحاد ـ والصِّدام الطبقي، كان شيئاً اعتيادياً والانفعال، والتصور الثابت (للمالك)، قد بدا غير مُتطابق وغير متلائم مع الأشياء الجديدة، التي تدخل بالتوافق مع سِمات الإنسان الذكي، والنقي، والمحب للحياة، كل هذا يقود بوليتشيف إلى نتيجةٍ مُرَّةٍ مُعذِّبةٍ: عاش دون جدوى، ولم يقم بعمل صالح، عاش في ذلك الشارع، ثلاثون عاماً، وبقي الجميع غرباء بالنسبة له، وعندما يقتنع بوليتشيف بالتدريج بهذا، تصبح صداماته مع النَّاسِ مِن حولهِ، ومع الآخرين الذين يحاولون بكُلِّ إمكاناتهم الدِّفاع عن النظام البورجوازي، أكثر حِدَّةً من ذي قبل بكثير.

وفي الأحاديث، التي كان يُصرح بها إيغور بوليتشيف علناً أمام النَّاس، كان

[48] غوركي. م، المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 18، موسكو 1952، ص120.

obeikandl.com

يستشفُّ السامع أن البطل لا ينتقد نفسه على الأوهام، والخِداع، والكذب وغيرها من الصِّفات السَّيئة، التي عانى منها في حياته فحسب، بل أخذ يشعر بالسعادة، وبدأ يثق بالحياة، ويثمِّنها كلما اقترب من الحقيقة الإنسانية.

إن السمات الإنسانية الاشتراكية المتجسدة في نتاجات غوركي تنير بضوءٍ خافتٍ موضوع الصراع الرئيسي في المسرحية، ويبين الكاتب الطبيعة الخاصة التي تمتاز بها كل شخصية أدبية، وبشكلٍ أساسي البطل الرئيسي، ففي هذه المسرحية يصوِّر غوركي الألم، والغضب السَّاخط، والمعاناة من أجل الإنسان، والميزات الجيدة التي يحاول البعض القضاء عليها، كُلُّ هذا يسيرُ متوازياً مع النظام البرجوازي، وحسب الأصول والأُسس، التي يقوم عليها، وبنفسِ الوقت يتمُّ التعبير عن الثقة العميقة في المعنى الإنساني للثورة الآتية بشكلٍ أكيد.

وهنا لا بُدَّ من الإشارةِ إلى دور مكسيم غوركي في تطوير الأدب السوفييتي على الرُّقعة الشاسعة لأوَّلِ دولةٍ في العالم من حيثُ المساحة،

بالإضافة إلى الدَّور الكبير، الذي قام به غوركي ككاتب عبقري، فقد سجَّلَ صفحةً ناصعةً في تاريخ الفِكر الإبداعي الأدبي على مُستوى الأَدب العالمي ككُل، نجدهُ قد لَعبَ دوراً هاماً في تطوير ليس الأدب الروسي أو السوفييتي فحسب، بل في تنمية مَواهب وإمكانات الكُتاب التقدميين في مُختلف أنحاء العالم.

ويجب الإشارة إلى أن مكسيم غوركي كان المنظم الرئيسي لاتحاد الكتاب السوفييت، وهو الذي أشرف على أعمال المؤتمر الأول العام لاتحاد الكتاب خلالَ فترة الاتحاد السوفييتي لعام 1934، وساهم مساهمةً فعالةً في إقرار الكثير من الوثائق الهامَّة التي تحدد معالم وأُطر الأدب السوفييتي ومذهبه الأدبي الرَّئيسي، واقترح الكثير من التوصيات والمبادرات الهامة من أجل تطوير آداب شعوب الاتحاد السوفييتي في مُختلف الجمهوريات ولقد وجَّه اهتماماً خاصاً لتربية الكُتَّاب الشباب، ولقد تطلع الكتاب الشَّباب والصحفيون، الذين تربوا

obeikandi.com

تحت إشرافهِ إلى استيعاب التجربة الطويلة لشعوبهم، ومرافقة النضال العنيف للشعب السوفييتي، والذي شَرَعَ ينفِّذ الخطط والبرامج الاقتصادية، التي تضعها أمامه الحكومة بالتعاون مع المجالس الشعبيَّة، وليس مُصادفة أنَّهُ قد التفَّ حول مجلَّةِ «منجزاتنا» التي كان يحررها مكسيم غوركي مع الكثيرين من الكتاب الشَّباب، من ذوي العقول النيرة والعزيمة التي لا تلين، ومن هؤلاء كان الكتاب المشهورون ك . باؤوستوفسكي، ي . كاتايف، ف . بابريشوف، س . تريتياكوف، والكثير غيرهم، ولقد تعلَّمَ هؤلاء في مدرسة غوركي الأدبية، وأتقنوا أصولها، ملتزمين كُلياً بمبادئِ حزبية الأدب، والحقيقة في النقل، والتقنية الفنية العالية، والإفادة القصوى.

غوركي وكُتاب العالم:

استخدمَ مَكسيم غوركي أسلوب المراسلات مع الكُتَّاب السوفييت والأجانب الشباب، وقام بتدقيق الكثير من مَقالاتهم، وعرض وقدَّمَ للكثير من كتبهم، وقدَّمَ الكثير من النَّصائح والتوصيات بأسلوبٍ رفاقي ودونَ أيِّ ضغطٍ أو إحراج. ومن بين رسائله الكثيرة، كانت رسالته المؤرَّخة في 13 تشرين أول 1930 إلى الكاتب ليونيد ليونوف، والتي يتعرَّضُ فيها لنتاج الكاتب ليونوف (سوت) (اسم نهر) إذ كتب فيها: (.... إنَّ النُّقادَ على حَقٍّ، عندما يُفكِّرون ويؤكدون على أن سوت كانت من أكثر الإنجازات الأدبية ثقةً ونجاحاً بالنسبةِ للفنِّ الحقيقي المُعبِّرِ عن الواقع العَملي، وهُم على حقٍّ أيضاً، عندما يقولون: أن الشباب المثقفون والموهوبون، عندما يرغبون في قراءة هذا النتاج، فإنَّهم سوف يقومون بقراءتهِ بهدوءٍ وتمعُّن، ويتفهمون جيداً، كيف من الممكن استخدام المواد اللازمة لحياة اليوم، من أجل تكوين الصَّرح الحقيقي لحياة الغد ...)

كما كتب غوركي لصديقه ف . ف . ايفانوف موضحاً علاقته بالكتاب

obeikandl.com

الشباب: (... كونوا على ثقةٍ: وهذه ليست نصيحة كاتب أو مُعلم، إنني لم أعلم الكتابة كأديب، وكنت أتحدث دائماً وأتحدَّثُ الآن مع الكُتَّاب كقارئ منتبه، مُحبٍّ للأدب الرَّفيع، وليس أكثر من ذلك).

إنَّ فِكرة التعاون الثقافي لجميع الشعوب، وفكرة الجبهة الثقافية الواحدة ضد جميع أشكال التفاوت والاستغلال وغياب العدالة قد انعكست في الرَّسائل المتبادلة بين مكسيم غوركي والكُتَّاب الأجانب من خارج الاتحاد السوفييتي. لقد تبادل غوركي الرَّسائل مع الكثير من كتاب العالم ومن بينهم رومان رولان، س، زفايج، غ. ويلز، ي . سيكلر، ب . شو، ف . ايلنس، وغيرهم، وطمح غوركي من وراء نشاطه هذا إلى إقامة العلاقات المتينة بين الكُتَّاب التقدميين على الرَّغمِ من المسافات التي تَفصل بين بُلدانهم، وتوحيد أُناس الثقافة تحتَ شِعار «الإنسانية والأُمميَّة».

ويتكوَّن لدى القارئ انطباع كبير للغاية عن أهمية مكسيم غوركي بالنسبة للكُتَّاب المشاهير في العالم من مُعاصريه، وخيرُ مثالٍ على ذلك المراسلات بينه وبين ر. رولان، ا . باربوس، س . زفايج، وكل من يطلع على الرَّسائل بين رومان ومكسيم غوركي يُدرك عَظمةِ المضمون الأدبي والإنساني اللذين يتجسدان فيها بكُلِّ تجلٍّ، ومن خِلال هذه الرَّسائل يُمكِنُ مُلاحظة التطور الفكري والجمالي عند الكاتبين معاً، ونظرتهما الجماليَّة والفلسفيَّة حيثُ تشكِّلُ هذه الرسائل تمثالاً رائعاً لصداقتهما، وكان رولان قد تفهم جيداً الأهمية الكبرى التي يتمتع بها مكسيم غوركي بالنسبة لتطور العلاقات الثقافية بين روسيا السوفييتية وأوروبا، وكتب إلى مكسيم غورك ما يلي: (إنكم كنتم كجسرٍ يمتدُّ بين عالمين ـ القديم والمستقبل، وكذلك بين روسيا والغرب[49].

ومن خلال رسائله إلى رومان رولان نجد أن الأمير قد تأثَّرَ إلى حدٍّ بعيدٍ بالأدب السوفييتي، الذي أرسى أسسهُ الكاتب البروليتاري مكسيم غوركي، وليس

[49] مراسلات أ. م. غوركي مع الأدبات الأجانب، موسكو 1960، ص333.

obeikandl.com

فقط بل تعدَّى ذلك إلى الإيمان الكلي بأن المثل الإنسانية، التي دعا إليها غوركي سوف تنتصر.

أما رسائل أ . باربوس ونتاجاتهِ الأدبية المتنوعة فتتضمن مَواضيع متفرِّقة تصبُ جميعها في مركز قوى النِّضال من أجل السِّلم، ولهذا أصبح يُسمى في أوساط التقدميين الفرنسيين وعن حق ـ بـ (جندي السَّلام)، وقد التقى مع مكسيم غوركي في الكثير من القضايا وبشكلٍ أساسي حول هذا الموضوع الهام، وهو النضال من أجل السِّلم والعدالة والتقدُّم.

ولقد أشار س . زفايج في رسائلهِ ومقالاتهِ، التي أرسلها أو خصَّ بها الكاتب البروليتاري مكسيم غوركي، مُعبراً عن حُبِّهِ العميق والإعجاب الكبير في (البساطة العظيمة) لغوركي فقال: «إنه عبقري وواضح كل الوضوح، ويمتاز بموهبةٍ لا مَثيل لها في فهم حقيقة الإنسان، كما هو في واقع الأمر».

ومن الممكن الاستشهاد بالكثير من مَقولات الحُب والاعتراف في رسائل برنارد شو . غ . ويلز، ف. مورغريت، ك ـ هامسون ف . ايلينس وغيرهم، فكتب غ . ويلز ما يلي: «إننا لم نستوعب الكثير، وغالباً ما نرتكب الأخطاء الكثيرة ولكن في عوالمنا توجد عقيدةً مبدئيةً ثابتةً مُفادها، أن الشَّعب الروسي العظيم قد لعب ويلعب دوراً هاماً تاريخياً وطليعياً في تكوين العالم الجديد[50]».

عَبر غوركي في رسائلهِ عن الكثير من الأفكار التقدمية لإنشاء وازدهار الثقافة والحضارة العالمية التقدمية، وكان خيرَ داعيةٍ لازدهار الفكر التقدمي الروسي، ومطوراً فذاً لمنجزات الاتحاد السوفييتي، ومدافعاً دون هوادةٍ عن قضايا السَّلام في العالم أجمع، ورفيقاً مُخلصاً وأميناً ودقيقاً في علاقاته مع ممثلي الآداب الأجنبية التقدمية، وحكيماً، وفناناً يمتلك التجربة الحياتية الفنية، وإنساناً يمتلك القدرة اللامحدودة في تفهم التطلعات الأدبية والفكرية لزملائه من الكُتَّاب.

[50] رسالة ويلز المؤرخة في 11 شباط 1920.

obeikandl.com

لقد تقاسم مكسيم غوركي مع الأُدباء الأجانب شتى الأفكار والنظريات التي جاء بها حول الإنسان وعظمته، وحوَّلَ إبداعهُ الخلَّاق في تغييرِ مَعالمِ الأرض والطبيعة، وفي إحدى رسائلهِ المؤرخة في 21 آذار 1917 والموجَّهة إلى الكاتب هربرت ويلز كتب يقول: «إن هدفنا هو، بث الروح الرومانسية الاجتماعية في نفوس الشَّباب، وزرع بذور الحب والثقة بالحياة في قلوبهم، والإخلاص للناس. إننا نطمح لتعليمهم البطولة، والتضحية والشَّجاعة ويجب على الإنسان أن يدرك جيداً، بأنَّهُ هو المُبدع لهذا العالم ومالكه، وإنه يتحمَّل المسؤولية الكُبرى أمام المجتمع، وعليه أن يردع ويبعد جميع المصائب عن الأرض، وبنشاطه وحده من الممكن إعلاء كلمة الحق، وازدهار كل ما هو خير في الحياة.

علينا أن نعمل لمساعدة الإنسان للوصول إلى درجةٍ من الوعي يتخلَّصُ فيها من قيود الأنانية والشوفينية، اللتان تضطهدانهُ، ويسير مع أبناء المجتمع والإنسانية من أجل التقارب والوحدة[51].

ومع كل عام، يزداد البعد الذي يفصلنا عن تلك الفترة التي عاش وأنتج فيها مكسيم غوركي، ولكن، ومهما طالت الفترة وابتعدت المسافات، فإنَّ كلمات الكاتب خالدةً لا يعتريها النسيان، ولا ينطفئ وهجها الحار، بل على العكس تماماً إذ تزداد أهمية كتب غوركي في حياتنا المعاصرة، ولقد أجمع النقاد على ما يلي: «... إنَّ أهمية التجربة الفنية للكاتب غوركي، عظيمةً بلا حدود، وخاصةً في الوقت الحاضر ـ بالنسبة للأدب السوفييتي والآداب العالمية الأُخرى، وتطوير جميع الآداب التي تبنت مذهب الواقعية الاشتراكية كمذهبٍ أساسيٍ للإبداع الفني[52]».

ومن الجَّديرِ بالذكر إن الأفكار، التي طرحها غوركي ودافع عنها نصف قرنٍ تقريباً مازالت تشغل اهتمام البَشرية التقدميَّة ولهذا نجد أنه من الممكن اعتبار

---

[51] مكسيم غوركي مع الكتاب الأجانب، موسكو 1960، ص64، (باللغة الروسية).

[52] تاريخ الأدب الروسي السوفييتي في أربعة أجزاء المجلد 4، ص112.

obeikandl.com

الكاتب غوركي معاصراً لنا، وللأجيال القادمة، إذ أن أفكاره تمتاز بالحيوية والديمومة وقابلة للتطور باستمرار، وستبقى مَيزاته الأساسية كفنانٍ رائعٍ، ومربٍّ للأجيال من الكتاب، ومناضل عنيد من أجل السِّلم، ومثال حي للعلاقة المتينة بين الكُتَّابِ وشعوبهم، وغيرها من السِّمات الإنسانيَّةِ الرائعةِ قدوةً يُحتذى بها بالنسبة لألوف الكُتَّاب، ويتأكد هذا على الواقع العملي عندما نُشاهد مُختلف الأجيال وهم يتداولون فيما بينهم كُتب غوركي، ويتحاورون حول ما جاء فيها من أَفكار.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

الأدب العربي في بداية القرن العشرين
وتعرف العرب إلى تراث مكسيم غوركي

بوادر النهضة

تعودُ بداية عصر النهضة في الأدب العربي المُعاصر إلى أواسط القرن التاسع عشر، إذ بدأ الحكم العُثماني، الذي أخضع أكثرية البلدان العربية لسيطرته الاستعمارية، خلال فترة تزيد عن أربعة قرون، يسير نحو الاضمحلال، حتى وصل الانحلال بهذه الإمبراطورية العثمانية إلى درجة كبيرة، مما سمح، بشكل أو بآخر، بانبعاث الحركات الوطنية وبرزت العديد من الأفكار الجديدة، وبدأت الحياة بالصحو في جميع المجالات، وخاصة في عالم الأدب، ولقد عمَّت هذه النهضة كلا من سورية ومصر وفلسطين ولبنان والعراق ودول المغرب العربي وشبه الجزيرة العربية بالتدريج، وفي فترات متعاقبة، إلا إنها مرتبطة بمبادئ وأفكار حركة التحرر الوطني عامة.

وإذا ما ألقينا نظرة سريعة على تاريخ الثقافة عامة والأدب خاصة من خلال تاريخ سورية، قبل فترة السيطرة العثمانية تبين لنا أن سورية كغيرها من الأقطار العربية، قد شهدت حركةً علميةً واسعة، ومن المعروف للعالم أجمع المستوى الذي بلغته الحضارة العربية في القرون الوسطى، إذ سمع العالم بأسره بأولئك الشعراء والفلاسفة، الذين خطوا صفحة ناصعة في تاريخ الحضارة الإنسانية جمعاء، والذين ما زالت نتاجاتهم تستحوذ اهتمام الكثير من الباحثين والمستشرقين في شتى أنحاء العالم، ومن بين هؤلاء كان أبو تمام، والبحتري،

obeikandi.com

والمتنبي، وأبو فراس الحمداني، وأبو العلاء المعري، وغيرهم الكثير ممن أنتجوا كتباً خالدةً ما زالت تحتفظ بمركزٍ هامٍ في مكتبة الأدب العالمي.

لقد كان من الضروري جداً لرجال النهضة في أواسط القرن التاسع عشر أن يستفيدوا من الثقافة الأوربية المزدهرة في القرن التاسع عشر، والتي لعبت دوراً هاماً في تطوير مبادرات وظواهر النهضة، ومن الجدير بالذكر أن الاستفادة من الثقافة الأوربية لم تكن محصورةً أو مُقتصرةً على دراسة أياً كان من المذاهب أو المدارس أو الاتجاهات الأدبية العديدة في الآداب الأوربية، هذا وقد أجاد رجال الفكر العربي والباحثون من مختلف الثقافات لشتى القوميات والتجمعات الإنسانية، وتمَّ ذلك عن طريق إرسال البعثات العلمية إلى البلدان الأوربية للدراسة في جامعاتها وبشكل أساسي إلى فرنسا وإنكلترا وروسيا وإيطاليا وألمانيا وغيرها من الدول التي كانت قد قطعت طريقاً طويلةً في مجال تطوير الحضارة والثقافة عامة.

وكان للبعثة العلمية التي أرسلها محمد علي عام 1826، إلى فرنسا أهمية كبرى في كسر هذا الجدار بين الحضارات الشرقية والغربية، وقد اختصت إحدى هذه البعثات برئاسة الشيخ رفاعة الطهطاوي بدراسة القضايا والعلوم الإنسانية، وبشكلٍ أساسي الآداب واللغات، فيما تخصصت بعض البعثات الأخرى بالعلوم الطبيعية والاقتصادية.

أما في عام 1836، وبعد عودة هذه البعثة العلمية فقد تَمَّ تأسيس مدرسة الألسن للترجمة في مصر، وأشرف على إدارتها الشيخ رفاعة الطهطاوي بنفسه، وقد لعبت هذه المدرسة دوراً هاماً في مجال تعريف العرب على منجزات الآداب الأوربية والحضارة الأوربية عامةً.

كما ساهم هؤلاء الأعلام في تطوير العلاقات الثقافية مع بلدان أوربا، وأصبحوا رسلاً للثقافة العربية مع العالم الخارجي، ولقد تابعت هذه المدرسة نشاطها حتى عام 1882، حيثُ أخذ البريطانيون يدرسون اللغة الإنكليزية في جميع المدارس

obeikandi.com

الحكومية المصرية كلغة رسمية، وأثر ذلك تأثيراً سلبياً على سير عملية النهضة كما كان قد تم التخطيط لها، وخاصة في مجال تطوير اللغة العربية.

في نهاية القرن التاسع عشر عمل العديد من المترجمين اللبنانيين ـ أمثال فرح أنطون وخليل مطران ـ على ترجمة العديد من الأعمال الأدبية الهامة من الأدبين الإنكليزي والفرنسي ومنها بعض نتاجات شكسبير وموليير وفولتير، وغيرهم.

وتجب الإشارة إلى أنه في عصر النهضة، وخاصة في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، قد نضجت الظروف لاستقبال واستيعاب الثقافة الأجنبية وتفهمها، وتمَّ هذا بسرعة لأن الأدب العربي كان قد عانى من الجمود خلال فترةٍ طويلةٍ من الزمن، ولم يكن بإمكان الأدب القومي أن يلبي رغبات وتطلعات القراء من كافة الفئات الاجتماعية وبشكل خاص رغبات المثقفين.

ومع انتشار الاستعمار الانكليزي في مصر والسودان والأردن وفلسطين، وانتشار الاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان ودول المغرب، انتشرت كل من اللغتين الانكليزية والفرنسية في هذه البلدان، مما سهَّلَ على سكانها قراءة بعض المؤلفات الأجنبية بلغاتها الأصلية، هذا بالإضافة إلى مدارس تعليم اللغات الأجنبية، ومما ساهم في تطوير العلاقات الثقافية مع روسيا كان تلك المدارس التبشيرية الدينية التي انتشرت في بعض البلدان العربية وخاصة في فلسطين، ومن بين خريجي هذه المدارس كان الكاتب ميخائيل نعيمه الذي تلقى تعليمه في المدرسة التبشيرية في فلسطين (الناصرة) وأُرسل إلى روسيا ليكمل دراسته في المعهد الديني الاجتماعي في مدينة بولتافا الأوكرانية وقام بترجمة الكثير من الأعمال الأدبية الروسية إلى اللغة العربية، وعدا نعيمة كان يعيش في روسيا العديد من المهاجرين العرب الذين هاجروا إلى روسيا هرباً من ظلم السلطة العثمانية، وقد ساهم هؤلاء مساهمة فعَّالةً أيضاً بأعمال الترجمة، وبتطوير العلاقات الثقافية العربية ـ الروسية.

مع اتساع نطاق حركة التحرر الوطني في بداية القرن العشرين تصاعدت

obeikandl.com

الحركات العمالية والانتفاضات الشعبية لكافة الكادحين، في مختلف بلدان العالم، ولقد وجدت هذه الحركات صدى لها في البلدان العربية، ومن أهم الأحداث التي عمَّت أخبارها جميع أنحاء العالم، كان حدث قيام الثورة في عام 1905 في روسيا، والتي اعتبرت ـ التجربة الأولى للثورة الاشتراكية.

في مرحلة نهوض حركة التحرر الوطني اتسعت العلاقات الثقافية، وازدادت أعمال الترجمة، بشكلٍ لم تصل إليه من قبل، وساعد هذا في اختيار الثوار للطرق الصحيحة في النضال ضد المحتلين الأتراك، الذين حسبوا أن البلدان العربية هي إقطاعية تابعة لهم، وخلال النضال العنيف ضد الاستعمار التركي، سقط الكثير من الأبطال المناضلين من أجل التحرر والاستقلال والتقدم الاجتماعي، وطرد الكثير من قادة حركة التحرر الوطني عن بلادهم إلى المنفى البعيد، ومنع الكثير من الكتاب والشعراء من نشر نتاجاتهم، واشتدت الرقابة والتفتيش على المطبوعات، وأنزلت السلطات الاستعمارية مختلف العقوبات على كل من ينشر كتاب من دون موافقة من سلطات الاحتلال.

وفي الوقت الذي دعم فيه الاستعمار البريطاني مواقعه في مصر، والأردن، وفلسطين أخذت تعمُّ اللغة الانكليزية جميع دوائر الحكومة والمدارس وفي سورية ولبنان أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية. وعلى الرَّغم من سلبيات هذه المسألة: أن لا تملك الشعوب الحق في التعبير والتعليم باللغة القومية، فإن شعوب هذه البلدان قد تمكنت من التعرف عن كثب على الأدب الأوروبي باللغة الأم.

لقد أصبحت مرحلة النهضة فترةً هامةً لِنشر الأفكار التنويرية في الثقافة العربية بشكلٍ عام، ومن أكبر المهام أمام المنورين كان تحديث اللغة العربية وتطويرها وتنقيتها من الكلمات الأجنبية التي دخلت إليها، وأصبحت نشازاً في جسمها، كالكلمات التركية الكثيرة، واللهجات المحلية المتنوعة، وتأليف الكتب المدرسية الجديدة التي من شأنها تحديد الإعراب والنحو للغة العربية،

obeikandl.com

ومن بين المنورين المشهورين كان أديب إسحاق (1856 ـ 1885) وفرنسيس مراش (1836 ـ 1873)، ورزق الله حسون (1825 ـ 1880) وغيرهم.

لقد كان رزق الله حسون كاتباً اجتماعياً معروفاً ومحرراً للعديد من الصحف وهو أول من ترجم قصائد الكاتب الروسي الشهير كريلوف إلى اللغة العربية. كما اشتهر كاتب اجتماعي آخر في جميع أنحاء الوطن العربي، وترجمت أفكاره إلى العديد من اللغات العالمية، وهو عبد الرحمن الكواكبي (1854 ـ 1903) الذي سخَّرَ كل حياته لتطوير الفكر الاجتماعي والسياسي في المجتمع العربي أعوام النهضة، ففي كتابه (طبائع الاستبداد) توجَّهَ إلى الشعب العربي لكي يوحد الصفوف من أجل النضال ضد السيطرة الإقطاعية وضد الأنظمة الضرائبية البيروقراطية في ظل حكم السلطان عبد الحميد الذي استغل قدرات الشعب العربي أبشع استغلال وسلب ثرواته ونشر بنفس الوقت الأمية والجهل والفقر والأمراض الاجتماعية على اختلافها.

أما في بداية القرن العشرين فقد اشتعلت بعض الانتفاضات الشعبية في مختلف مناطق الوطن العربي ضد الاستعمار التركي، وتأسست المدارس التي لعبت دوراً هاماً في قضية تنوير الشعب، وتكوُّن الشعور القومي الذي خمد لفترة طويلة من الزمن، ولم تجد هذه المشاعر الوطنية الطريق المناسبة للتعبير عن الرأي والتنفس بحرية خلال سيطرة الإمبراطورية العثمانية، التي كانت من أبشع أشكال الاستعمار إذ أنها لم تنشر إلا المصائب والآلام العديدة للشعوب، ولم تنقل أي نوع كان من أنواع الثقافة والحضارة للشعب العربي.

وفيما بعد تطورت الانتفاضات الفلاحية ضد الولاة الأتراك وانتشرت المدارس التنويرية في العديد من مدن وقرى البلدان العربية، وازداد عدد الشخصيات الوطنية المثقفة التي تمكنت وبطرائق مختلفة من التعرف على تاريخ الثورات في العالم، واتصلت بسبل الحضارة العالمية، ثم شرعت بنقل هذه الأفكار والنظريات التحررية إلى الوطن العربي، كل هذا ساهم بشكل أو بآخر في

obeikandl.com

تفتح العقول العربية التي تكدس عليها الغبار خلال قرون من الزمن تحت حكم الاستعمار العثماني، الذي أراد أن يجعل من المواطنين العرب أتراكاً من الدرجة الثانية، إذ فرض اللغة التركية في المدارس والدوائر الحكومية وجعلها لغة رسمية في العلاقات التجارية والبيع والشراء وما إلى ذلك، لقد أراد الأتراك من هذا كله أن يقضوا على إحدى مقومات القومية الأساسية، ألا وهي اللغة العربية.

أمام هذه المؤامرات الكثيرة على مستقبل الوطن العربي كان على دعاة النهضة وقادة الانتفاضات الشعبية أن يسلكوا طريقاً أخرى تناقض مخططات الاستعمار العثماني من أجل الحفاظ على اللغة العربية والثقافة الوطنية، إدراكاً منهم أن المعركة ضد الاستعمار يجب أن تكون ثقافية واقتصادية وسياسية، وفي هذا المجال لعبت كل من الشخصيتين الاجتماعيتين المعروفتين سليم البستاني وناصيف اليازجي وغيرهما دوراً هاماً في نشر وتعليم اللغة العربية، وعَمِلا كل ما بوسعهما من أجل الحفاظ عليها وتطوير قواعدها ونحوها حسب الظروف اللغوية والأدبية المعاصرة، كما افتتحت الكثير من المدارس من أجل تعليم الكوادر الوطنية اللغات الأجنبية للتحدث مع العالم الأوربي بلغاته، وتطوير ثقافتنا الوطنية بالاعتماد على التجربة الثقافية الطويلة التي خاضتها الشعوب الأوروبية وبالاعتماد على حضارتنا العربية العريقة، ومن هذه المدارس اللغوية كانت المدرسة الإنكليزية عام 1863، والمدرسة الروسية 1880، وقد لعبت كل من هاتين المدرستين بغض النظر عن بعض السلبيات التي انعكست من خلال الأسلوب والسلوكية وأحداث بعض الصراع الديني بين شتى الاتجاهات التبشيرية، دوراً هاماً في عملية التنوير الثقافي، والطباعة والنشر.

وتجب الإشارة إلى مسألة أخرى ساهمت مساهمة فعَّالة في تطوير النهضة العربية عامةً والسورية خاصةً، ألا وهي أعمال الطباعة حيث أسست أول دار للطباعة

والنشر في العالم العربي في دير قزحية في لبنان عام 1610[53].

وكانت سورية أول بلدٍ عربي ينشر أول كتاب مطبوع بالأحرف العربية، ولقد عملت السلطة التركية، وبعض المحافظين الجهلة على منع أعمال الطباعة واعتبروها صنواً من أعمال الشياطين، وتوقف الأمر حتى تمكن محمد أفندي الحلبي ـ سفير السلطان أحمد الثالث في فرنسا، في تلك الآونة من إقناع السلطة العثمانية بضرورة استخدام الطباعة وتسهيل أمورها الإدارية، وهكذا أسس بن محمد أفندي عام 1712، أول مطبعةٍ في حلب، ثم تأسست مطبعة (الهيفاء) في دمشق عام 1882.

واتسع هذا العمل فيما بعد حتى أصبحت تطبع الصحف والمجلات المتعددة الاتجاهات ولقد بلغ مجموع الصحف والمجلات الصادرة في المدن السورية الأساسية: دمشق، حلب، حمص، حماة، اللاذقية من عام 1908 وحتى بداية الحرب العالمية الأولى 1914 أكثر من مئة مجلة وصحيفة[54].

وفي فترة 1920 ـ 1939 صدر في سورية أكثر من 375 جريدةٍ ومجلةٍ، وغالباً ما كان العثمانيون يبعدون أصحاب هذه المجلات والصحف، كما كان في طردهم لأديب إسحاق ومحمد كرد علي وغيرهما خارج حدود الوطن: «لقد طمح المنورون بأن يحققوا الازدهار لبلدهم عن طريق التنوير العلمي والثقافي وإنهاء النزاعات والخلافات الدينية، لكنهم لم يكونوا مسلحين بنظريات اجتماعية وسياسية واضحة المعالم، وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبح لديهم نوع من الوضوح حول المسائل التي يعانون منها، ومثلهم في هذا مثل المنورين الفرنسيين، الذين حللوا الظواهر الاجتماعية في الحياة بالاعتماد على بعض النظريات المثالية، ورأوا في التنوير القومي، والأحكام الديكتاتورية الطرق الأصلح من أجل تنظيم الشرق، وحسبوا أن الشرق لم ينضج بعد لممارسة

[53] انظر حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، موسكو 1961 المجلد 2، ص325.

[54] انظر طراز فيليب. تاريخ الصحافة العربية، بيروت، 1933، ص49.

obeikandl.com

الحكم الجمهوري[55]».

زِد على ذلك أن الأقاصيص التي نشرت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت متشابهة تقريباً فيما بينها، حيثُ تناول الأدباء قضية المرأة وعالجوها بأشكال مختلفة، فمنهم من نادى بتحريرها، ومنهم من التزم بالوسط، ومنهم من كان محافظاً دينياً، أما ما يخص الفئة الأولى فقد اتسعت وتعاظمت مع الزمن، إذ انطلق أنصارها من انتقاد العادات القديمة وطالبوا بالتقدم والتطور، ونادوا بالحرية والاستقلال الوطني كلياً من نير الاستعمار والعبودية، وغالباً ما كان ينعكس نشاطهم من خلال أشكال عفوية، والسبب في هذا يعود لضيق أفقهم ومعارفهم.

ولقد تعرض الكثير من هؤلاء المنورين التقدميين ـ حسب مقاييس التقدم في تلك الفترة ـ إلى الكثير من الضغوطات من قبل الحكومات الاستعمارية، وعانوا شر معاناة من الأحكام القاسية الصادرة بحقهم، ولذلك لجأ البعض منهم للكتابة حسب أصول المدرسة الرمزية الرومانسية، للتعبير عن مشاعرهم ومقاصدهم.

لقد ظهر في نهاية القرن التاسع عشر ـ بداية القرن العشرين العديد من كتاب القصة القصيرة أمثال فرنسيس مراش نعمان القساطلي، رزق الله حسون، عبد الحميد الزهراوي، عبد المسيح الأنطاكي وغيرهم، فنشر فرنسيس مراش عام 1872 في بيروت قصة «الصدف في غرائب الصدف» التي حاول فيها أن يسبك بين ما هو حديث في الأدب الأوروبي وبين القديم في الأدب العربي الكلاسيكي، وواضح من التسمية الإيقاعية أن الكاتب أراد أن يعكس موضوعاً رومانسياً ولجأ إلى تقسيم القصة إلى 18 جزءاً يكون فيها الحب الموضوع الأساسي.

وخلالَ الوصف والحوار يستخدم المؤلف أسلوب الوعظ والأمثال والحكم

---

[55] ليفين ز. ي، تقويم المجلة التنويرية العربية في القرن التاسع عشر، في مجلة «المشاكل الفلسفية» 1958، العدد 6، ص92.

obeikandl.com

وغيرها حتى يصل به الأمر إلى الوصفات الطبية، وناقش الكاتب الاجتماعي قضايا الحب والزواج، وقال إن الزواج يجب أن يتم من خلال الحب المتبادل. ورفض جميع أشكال الإكراه، والزواج نتيجة حب وحيد الجانب، وكان هذا بالنسبة لعصره، طروحات متقدمة تقدماً بليغاً.

المنورون والفن القصصي:

انعكس موضوع الحب أيضاً في قصة «الفتاة أمينة وأمها» للكاتب نعمان القساطلي، ومن خلال أحداث القصة يتعرض الكاتب إلى مسألة الصراع بين القديم والحديث، واهتم جِدَّ اهتمامٍ بقضية تحرر المرأة، وطالب بمساواتها بالرجل وانتقد فرض الزواج المبكر عليها، ونادى بأن تعامل المرأة، وقبل أي شيء آخر، كإنسان، وليس كمتعة تباع وتشترى، وها هو يكتب في قصة «الفتاة أمينة وأمها» ما يلي: إن موتي، دون أي شك، سيكون درساً كبيراً لجميع الفتيات والشبان في وطني الذي أحبه حباً كثيراً، واختياري للموت سيكون أمراً مبرراً عند الأجيال القادمة[56]».

ويقول حبيبها قبل وفاته لأحد أصدقائه: «افعل من أجل الوطن، وأهدافه، وناضل ضد تلك العادات القديمة البالية، وضد كل ما يسيء إلى الحرية، واكتب عني وعن أمينة قصة تعلم الناس بأنه يوجد حب حقيقي، يستمر حتى النهاية، ويحافظ على الإخلاص والوفاء بين الحبيبين[57]».

ومن الجدير بالذكر أنه، وعلى الرَّغم من المضمون الاجتماعي الذي حاول الكتاب أن يزجَّهُ في نتاجاتهم، فإن هذه القصص كانت ضعيفة من حيث الشكل الفني والتقنية الأدبية، وكل ما فعله هؤلاء الكتاب أنهم تمكنوا من

---

[56] انظر كتاب (القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية) للمؤلف مصطفى شاكر، ص202.

[57] مصطفى شاكر، القصة السورية حتى الحرب العالمية الثانية، ص104.

obeikandi.com

عكس تلك الأفكار التي جاء بها المنورون من أوساط البرجوازية العربية في تلك الحقبة التاريخية من الزمن، وغالباً ما كانوا يتقوقعون في مواضيع الحياة اليومية مثل الحب والزواج وما إلى ذلك، لأنهم كانوا في حقيقة الأمر عاجزين عن فهم وإدراك أبعاد القضايا الأساسية التي تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل المجتمع مثل الفقر والاستغلال والاضطهاد، ويعود هذا لأن الأكثرية الساحقة من هؤلاء الكتاب كانوا من أوساط البرجوازية، وبكلمة كانوا بعيدين كل البعد عن حياة سواد الشعب وأحياءهم الفقيرة المكتظة بالسكان والمصائب والحرمان بآن واحد.

لقد نشطت بعد الحرب العالمية الأولى حركة التأليف والطباعة والنشر في العالم العربي عامة، وفي سورية ولبنان خاصة، وظهر العديد من المجلات والصحف الأدبية، ومن بينها كانت مجلات الرابطة الأدبية، والناقد والطليعة، وغيرها من الصحف والمجلات التي كان لها أثر بالغ في تطوير الحركة الأدبية عامة.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخين العرب في الوقت الحاضر، قد أجمعوا، بعد دراسة مطولة لتطور الفكر الاجتماعي في الوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى أن المفكرين العرب قد فتشوا مطولاً عن أجوبة على القضايا التي تشغل بالهم، وعن الطرق الضرورية لتحرير العالم العربي من نير الاحتلال الأجنبي، والوسائل لاستعادة العظمة العربية المفقودة، كما بحثوا عن الأسس السياسية والاجتماعية التي ستغير هذا الواقع وتساهم في تحقيق الطموحات.

الرَّابطة الأدبية:

كان على الأدباء ورجال الفكر أن يبحثوا عن الصيغ والأشكال التي تعكس آرائهم، وفي هذا المجال أسس الأدباء العرب السوريون في العام 1921 الرابطة الأدبية، التي ضمَّت الكتاب ذوي النزعة الوطنية والتقدميَّة، وأصدرت هذه

obeikandl.com

الرابطة بياناً عن اجتماعها الأول جاء فيه: «إن أدبنا اليوم شبيه بالمريض السقيم، الذي أنهكته العلل، وأما ما يخص علاجه فهو ينقسم إلى قسمين يكملان بعضهما البعض، فهذا الجسم المريض النحيف يحتاج وقبل كل شيء إلى علاج وتقوية، ومن ثم يجب قطع تلك الخلايا المصابة بالبكتريا...، وذلك الإنسان الذي سيأخذ على عاتقه مداواة المريض يجب أن يكون طبيباً بناءً ومهدماً بنفس الوقت...، وأننا نعني بالهدم ـ القضاء على النواحي السيئة من أجل تدعيم الجيدة...[58]».

ولكن للآسف لم تكن هذه الرابطة الأدبية قادرة على تنفيذ مهماتها، والتعهدات التي قطعتها على نفسها والخطط والبرامج التي أقرتها، وقد أدى هذا ـ بشكل مباشر أو غير مباشر، ـ إلى أن يعود الكثيرون منهم إلى الأدب العربي القديم، وها هو أحد ممثلي المحافظين الشاعر محمد البزم يكتب ذات مرة ما يلي: «إننا نتابع الحياة في ظروف سياسية حساسة، ويتابع الأجانب السيطرة علينا، وعلى مصائرنا السياسية، وبالنتيجة علينا ـ ما دمنا نقاوم من مكامن الضعف، أن نتجه إلى ماضي العرب، إلى الأدب العربي القديم»، وكان داخل الرابطة عدد لا بأس به من الكتاب والمفكرين التقدميين الذين دعوا إلى التجديد، والسير إلى الأمام مستفيدين من تجارب الماضي، وما في هذا الماضي من إيجابيات يقتدى بها، وأكثر هؤلاء الكتاب المجددين كانوا من الشبان الذين جاءوا إلى الأدب في العشرينات من القرن الحالي (العشرين) وكان بعضهم ممن تأثروا لدرجة ما بالأدب الأوربي، ولذلك وقفوا بحزم ضد المحافظين، وعملوا على تأسيس الأدب المعاصر الجديد على أسس سليمة مستفيدين من تجربة الآداب في البلدان الأوربية، وأشار الباحث جميل صليبا إلى الأثر الذي تركه التَّماس بين الحضارة العربية والأجنبية إذ قال: «لقد كان لاتصال الشام بالحضارة الأوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من

[58] سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية، دمشق 1957، ص147.

obeikandi.com

القرن العشرين، أثر بالغ في تطورها الفكري والاجتماعي، فتهدلت فيها مظاهر الحياة، وتصارعت فيها القيم وتزعزعت المعتقدات القديمة والعادات المألوفة[59]».

ولكنَّ هذا الاتصال بالثقافة الأوربية المتقدمة اتسم طابع الأخذ فقط، واستمر هذا الوضع السياسي حتى انتهاء الحرب العالمية، وبدأت تترجم بعض الأعمال العربية إلى لغات أجنبية.

الأُسس التاريخية للعلاقات الثقافية:

طالما أن موضوع الكتاب محدد، فلابد لنا إذن أن نقتصر كلامنا على العلاقة الثقافية بين الأدبين العربي والروسي وقبل البدء بالمقارنة، من الضروري التعرض للمحة تاريخية تعكس تاريخ العلاقات الثقافية والحضارية عامة بين الأدب العربي من جهة، والأدب الروسي ـ السوفييتي من جهة أخرى، والاطلاع على المقومات التاريخية التي تأسست عليها هذه العلاقة الثقافية، لقد عبَّرَ الشاعر اللبناني نيفون سابا عن هذه العلاقة التاريخية بين الشعبين، الروسي والعربي بما يلي: «إن هذا الحب لروسيا وشعبها، وهذا الشعور الخاص لم يكن عند الكتاب والشعراء مجرد شعور مؤقت أو طفرة عابرة وخاصة لأن العلاقة بين روسيا والمشرق العربي تعود إلى ما قبل تسعة قرون تقريباً».

تعرف الروس إلى سوريا منذ أمدٍ بعيدٍ، وجاء ذكرها في العديد من الأماكن والوثائق التاريخية مثل «قصة السنوات الغابرة» وكذلك في أول تراث روسي مكتوب «حياة وترحال دانيل في الأراضي الروسية ايغومينا» (1106 ـ 1107)، كما ذكرت أسماء العديد من المدن السورية، وخاصة الساحلية منها مثل صيدا

[59] جميل صليبا، محاضرات، حول الاتجاهات الأدبية في سورية مع تأثيرها على الأدب العربي، دمشق 1958، ص55. 6.

obeikandi.com

وصور وطرابلس، كما جاء وصف للطريق المؤدية إلى دمشق.

فيما بعد سجلت الكثير من المذكرات التي تبين العلاقة بين بعض البلدان العربية وروسيا، وقام بتسجيل هذه المذكرات عدد من الرَّحالين الروس والمبشرين الروحيين والتجار وغيرهم، وجاء في مذكراتهم وصف موسع لطبيعة هذه المنطقة، وميزات سكانها، والمواصفات العمرانية، والأسس الحضارية وغير ذلك[60].

ومن الجهة الثانية، زار العديد من مواطني سوريا الأراضي الروسية، وحلوا في موسكو وبطرسبورغ منذ أيام حكم القيصر فيودوريوحنافيتش وكان من بينهم الرَّحالة العربي (ضو) الذي قام برحلة طويلة عبر آسيا الصغرى إلى مولدافيا فالاخيا، وأوكرانيا وأمضى في موسكو فترة طويلة نسبياً (من 17 حزيران حتى 11 آب 1586)، ولكن لم نطلع على مذكراته وتاريخ رحلاته إذ لم تصل مذكراته إلى الوقت الحاضر.

وكذلك رحلات مكاري إلى موسكو عام 1654 ـ 1656، ومرة ثانية خلال عامي 1666 ـ 1668، ولم يصل إلينا إلا كتاباً واحداً من مذكراته وهو بعنوان «رحلات مكاري» ولقد ترجم هذا الكتاب غ . أ . مرقص (1846 ـ 1911) الذي درس أصول اللغة الروسية في بطرسبورغ وأنهى التعليم العالي في جامعة موسكو، وخصص لترجمة هذا المجلد الكبير والذي يضم خمسة أجزاء قرابة 25 سنة من عمره، وقدم بعمله هذا خدمة جليلة في مجال تطوير العلاقات الثقافية بين روسيا والبلدان العربية في بداية القرن العشرين.

ومن جهة أخرى نطلع من خلال دراسة مذكرات السائح الروسي فاسيلي غريغور فيتش ـ بارسلي على وصف دقيق للمدن السورية وخاصة دمشق إذ وصفها من حيث الفنون المعمارية المنتشرة فيها، وتحدث عن العادات والتقاليد والطبيعة

[60] انظر كتاب يوم دانتسيك «الشرق الأوسط» موسكو 1976.

obeikandl.com

المناخية وغير ذلك من ميزات المدن السورية وغيرها من مدن الشرق الأوسط.

ولعب سينكوفسكي و . ي دوراً هاماً في تاريخ الاستشراق خلال فترة ترأسه لقسم الدراسات الشَّرقية في جامعة بطرسبورغ وتجوَّل في الشرق لمدة سبعة أشهر، فكتب سلسلة من الكتب أسماها «مُذكرات عن سورية» وتمتاز هذه المؤلفات بمستواها الجيد، وكانت فريدة من نوعها، وما زالت تقرأ حتى الوقت الحاضر بإقبال واسع.

وتمكن سينكوفسكي من دراسة اللغة العربية بقواعدها ونحوها، مما جعل نتاجاته على درجة عالية من الأهمية، وخاصة لأنه استخدم الكثير من المراجع والمؤلفات العربية التاريخية، وفي هذا المجال لا بد من ذكر مؤلفات وملاحظات مورافيوف أ . ب، التي اتسمت بالطابع الوثائقي.

ويحظى نتاج الدبلوماسي الكاتب ك . م بازيلي باهتمام جميع المستشرقين، وبازيلي هو أحد أصدقاء الكاتب الروسي المعروف غوغول وكان قد درس معه في مدينة نيجينسكي في مدرسة واحدة، وعمل بين أعوام (1839 ـ 1853) قنصلاً عادياً، وفيما بعد قنصلاً عاماً مفوضاً في سورية ولبنان، وقد اطلع غوغول على نتاجه وهو مخطوط، وأثنى الأخير على هذا العمل لقيمته العملية والأدبية، وقد صدر هذا الكتاب عام 1862.

وتجدر الإشارة هنا إلى كتب القنصل الروسي في بيروت بيتكوفيتش. ك الذي درس المنطقة بشكل جيد وجمع المعلومات الإحصائية القيمة وضمنها كتاب «لبنان واللبنانيون» واتسم هذا النتاج بطابع الأعمال العملية المعاصرة، زد على ذلك أنه عكس الحياة في سورية وفلسطين ولبنان بشكلٍ واقعي وموضوعي ومن وجهة نظر معاصرة.

ولقد أرسلت الحكومة القيصرية بالإضافة إلى البعثات التبشيرية بعض البعثات العلمية لدراسة المنطقة العربية والحضارة العربية والآداب واللغة، وكان الباحث الروسي المستشرق كراتشوفسكي (1883 ـ 1951) أحد رسل العلم في فترة

obeikandl.com

(1908 ـ 1910)، حيثُ تجوَّل في سورية ومصر ودرس اللهجات في اللغة العربية على أرض الواقع، وكتب مذكراته وسجلاته التي أعار فيها اهتماماً خاصاً خلال تجواله وعمله في التفتيش والبحث عن المخطوطات العربية القديمة وتحدث عن لقاءاته مع المفكرين والعلماء أمثال جرجي زيدان (1861 ـ 1914) وأمين الريحاني، ومحمد كرد علي (1876 ـ 1953) وغيرهم من أعلام الفكر في عصر النهضة في بداية القرن العشرين، ولقد أحرز كراتشوفسكي تقدماً هاماً في دراسة العلوم اللغوية والأدبية العربية، وسجل الكثير من الأعمال الأدبية العلمية التي تعتبر خطوة هامة على طريق العلاقات الثقافية الروسية ـ العربية. ولقد خولته هذه الدراسات العلمية حول الآداب الشرقية ـ قَديمُها وحديثها ـ أن يصبح عضواً في أكاديمية العلوم السوفييتية، وأصبح بمثابة نقطة انطلاق هامة في مسيرة علم الاستشراق العالمي، وقد أسس بالتعاون مع زملائه المستشرقين السوفييت أمثال كريمسكي وبارانوف وغيرهما كلية الآداب الشرقية في جامعة بطرسبورغ ولقد نشر كراتشوفسكي الكثير من الأعمال الأدبية والعلمية منها: «دراسات في تاريخ الأدب العربي» والتي ضمنها دراسات عن الشعر العربي في العصر الجاهلي، والشعر والأدب في العصر الإسلامي، وتمكن كراتشوفسكي من أن يوضح معالم وأسرار الشعر العربي الكلاسيكي، ويبين قوته ومتانة ألفاظه وحبكته الشعرية، ورأى كراتشوفسكي أن شعر الجاهلية يمثل الأساس الموضوعي للشعر العربي في مرحلة الإسلام، كما تناول كراتشوفسكي الشعر الأندلسي وبين الرقة والعذوبة اللتين يتمتع بهما، وناقش الأصناف الشعرية الحديثة، وبين أسس شعر الموشحات والزجل وغيرهما.

ومن خلال الكلام عن الشعر والأدب في الأندلس والأدب العربي المِهجري عكس لنا المؤلف كراتشوفسكي مختلف نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والثقافية في إسبانيا أيام تواجد العرب فيها، وقد أصدر الأكاديمي كراتشوفسكي كتاباً بعنوان «الشعر العربي في الأندلس

obeikandl.com

الذي تجاوز فيه الدراسة الأدبية ليعكس بعض القضايا التاريخية والجغرافية والسياسية.

ومن أهم كتاباته كانت «دراسات في تاريخ الأدب الجغرافي في بلدان الشرق الإسلامي»، التي أمضى في تأليفها قرابة ثلاثين عاماً، وعكس فيها أحداث القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ولقد ساهم الأكاديمي كراتشوفسكي بترجمة القرآن إلى اللغة الروسية، وعلَّقَ على هوامشه، وفسَّرَ بعض الآيات، وكتب الكثير من الدراسات حول تطوير علم الاستشراق في الاتحاد السوفييتي والبلدان الأجنبية الأخرى.

حركة الترجمة وأثرها في تطوير الصلات الأدبية:

خلال عدَّةِ عقودٍ من بدء النهضة كانت الدول العربية بكافة شعوبها بحاجة ماسة إلى مصادر ثقافية كي يتم إشباع المتطلبات الذاتية، والحاجة المزمنة، وكان الشعب العربي متعطشاً إلى الكتب الرائدة التي تساعد على التخلص من الجهل والأُمية والانحطاط الأدبي والحضاري في ظِل الاستعمار العثماني المنحط.

ومنذ بدء عصر النهضة أخذ المترجمون على عاتقهم نقل النتاجات الأدبية المعروفة عالمياً لمختلف الكتاب الفرنسيين والإنكليز والروس، ولكن في تلك المرحلة لم يكن لدى البلدان العربية مترجمين يجيدون اللغات الأجنبية كالروسية والإسبانية وغيرهما، لذلك تمت الترجمة عن طريق اللغتين الفرنسية والإنكليزية المعروفتين جيداً من قبل المثقفين العرب، ولهذا تمت ترجمة الكتاب الروس أمثال بوشكين، غوغول، دستويفسكي، تورغنيف، وتشيخوف عن طريق لغة ثالثة واستمرت الترجمة على هذا المنوال حتى برز عدد من المترجمين بعد عام (1905) قاموا بالترجمة من اللغة الروسية إلى العربية مباشرة دون مساعدة لغة وسيطة.

obeikandl.com

وقد اصطدمت أعمال الترجمة ببعض الصعوبات الموضوعية منها أن اللغة العربية قد عانت من عدم الاستعمال الأدبي خلال فترة طويلة، استمرت طوال فترة الانحطاط، وكانت اللغات الأوربية قد قطعت شوطاً كبيراً في التطور اللغوي، ودخل إليها سيل كبير جداً من المصطلحات العلمية والأسماء والتعابير والأفكار، ولهذا كان يعاني المترجمون من صعوبة التسوية بين اللغتين، وكانوا مضطرين في بعض الأحيان إلى إدخال الكلمة الروسية إلى العربية كما تلفظ في اللغة الأصل مثل: سوفخوز، كولخوز، كوميديا، تراجيديا، مترو، ديزل. وثمة مسألة أخرى عانى منها المترجمون وهي قضية صعوبة الأسماء الروسية للشخصيات الأدبية الواردة في النتاجات الأدبية، ولهذا لجأ المترجمون إلى نقلها كما يطيب لهم، فغيروا الأسماء الروسية ووضعوا بدلاً منها أسماء عربية وغالباً ما كانوا يحذفون بعض المقاطع أو الصفحات الكاملة التي يتعرض فيها الكاتب لعكس خواطره أو بعض الآراء التي يؤمن بها، أو الكلام عن علاقة الحب، والزواج، وبعض القضايا الاجتماعية بصراحة، ويلجئون لهذا الأسلوب لتفادي النقمة الشَّعبية التي ما تزال دون هذا المستوى من الصراحة، وكثيراً ما وُجِّهت اتهاماتٌ تدين المترجمين بالانحلال الخُلقي مجرد أن يترجموا نصوصاً علمية، أو الإلحاد والزندقة والشذوذ الجنسي، وفي هذا المجال تغير اسم بطل قصة تشيخوف (الكسي يليسيفيتش يومايف) إلى عبدالله سجون، و(أغاشكا) إلى سلمى، و (زيلتيرسكي) إلى أمين أفندي وهكذا دواليك...

وفي بعض الأحيان كانوا يُحوِّرون فكرة الكاتب ليضعوا مكانها أفكارهم ونظرياتهم الخاصة، وفي بعض الأحيان كانوا يدخلون فصولاً بأكملها من تأليفهم، وعلى سبيل المثال رفاعة الطهطاوي في ترجمته لكتاب «مغامرات تيلماك» فهو قد أضاف فصلاً كاملاً عن رحلته إلى السودان على لسان الحكيم الإغريقي "منذور" ليصور الظلم والاضطهاد الذي كان يمارسه الخديوي عباس وأوضاع الشَّعب المصري الذي يعاني من التخلف والجهل أشد

معاناة.

وكذلك سليم قبعين الذي ترجم في بداية القرن العشرين بعض نتاجات الكاتب الشهير ليف تولستوي، وحورها إلى قصص ذات طابع عربي، فوضع مكان تعاليم الديانة المسيحية التي ناقشها تولستوي بعض النظريات للكاتب الاجتماعي المصري قاسم أمين المعروف بنزعته لتحرير المرأة من قيودها.

وفي بعض الأحيان لم يذكر المترجم اسم الكاتب كلياً واكتفى بالإشارة إليه من بعيد، فصار على القارئ أن يحزر اسم الكاتب، ويبحث عن المرحلة الزمنية التي كتب فيها هذا النتاج الأدبي فأحياناً كان القارئ يتوصل إلى نتيجة ما، وأحياناً يبقى الكاتب مجهولاً بالنسبة له، وهذا ما حصل في المجموعة القصصية التي ترجمها إبراهيم جابر عام (1905) تحت عنوان «الدرة الصديقة في قصص ثمينة» إذ قدم المترجم للكتاب بالكلمات التالية: «يضم هذا الكتاب ستَّ قصصٍ لِعظماء الكتاب الروس، ومن بينهم تشيخوف وباتابينكو وما عليك إلا معرفة الآخرين».

تعاقبت السنوات ولم يعرف القُراء العرب أسماء المؤلفين حتى تمكَّنَ المستشرق السوفييتي أ . كراتشوفسكي بعد عشرِ سنواتٍ من اكتشاف قصتين تعودان للكاتبين ف . ميكوليتش، ومينيتسيكي، ولم يعرف أسماء الكتاب الآخرين[61].

ومن أبرز المترجمين العرب في عصر النهضة التنويرية كان عثمان إبراهيم، جميل المدور، رفاعة الطَّهطاوي، فرح أنطون، مصطفى المنفلوطي، سليم قبعين وغيرهم من المترجمين الذين عملوا بالدرجة الأولى في مجال ترجمة الكتاب المشهورين عالمياً أمثال شكسبير، فولتير وموليير، تولستوي وتشيخوف وغيرهم من عظماء الأدب العالمي.

ولقد ترجمت إلى اللغة العربية العديد من أعمال كلاسيكيي الأدب الروسي،

[61] أنظر كتاب علي زادي، حول الترجمة في مرحلة التنوير، ص59 . 115 (باللغة الروسية).

obeikandl.com

وتصاعدت أعمال الترجمة بشكلٍ واسعٍ بعد ثورة عام 1905 في روسيا، وانتشرت الأعمال المترجمة بشكلٍ أوسع بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية، فترجم لبوشكين: «بنت الأمر» /1898/، «زنجي بطرس العظيم» /1927/، «طلقة» /1933/، «ملكة البستوني» /1937/، «الحانوتي» /1943/.

واستمرت حركة الترجمة في الآونة الأخيرة تتطور، ولعلنا في غنى عن تعداد أسماء المترجمين هنا لكثرتها، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، إذ ازداد عدد الدراسات التي خصت الكتاب الروس والشعراء في القرن التاسع عشر، ومن بين هذه الكتب كان كتاب محمد حسن الذي تناول فيه نتاج الشاعر الروسي الشَّهير الكسندر بوشكين، والذي صدر عام 1945 تحت عنوان «بوشكين وعالم الشُّعراء الروس».

ولقد كتب ميخائيل نعيمة، الذي اطلع اطلاعاً جيداً على الأدب الروسي، وقرأ النتاجات الروسية باللُّغة الأم، ما يلي: «من شعر بوشكين وليرمنتوف، ونكراسوف اطلعت على الكآبة العميقة في النفس الروسية نتيجة القلق المستبد بها من حياة مقنعة العينين، مكبلة اليدين والرِّجلين، وللشوق المتأجج فيها إلى حياة تبصر طريقها وتسير منه طليقة، نشيطة، آمنة ومؤملة».

كما ترجمت كذلك بعض أعمال غوغول كمسرحية «المفتش» وقصة «المعطف» القصيرة، ونالت هذه الأقصوصة إعجاب القراء العرب لما فيها من واقعية، وأثر كبير في تربية النفس البشرية، وتبيان الظلم والفقر والحرمان والمصائب التي سادت المجتمع الاستغلالي، ولقد قومها الكاتب الروسي ألفان تورغينيف خير تقويم إذ قال: «لقد خرجنا جميعنا (يقصد الكُتَّاب الروس الواقعيين) من «معطف غوغول».

كما تُرجمت أيضاً بعض نتاجات الكاتب الروسي تورغنيف الذي تمكَّنَ وبعبقريةٍ نادرةٍ أن يعكس حياة المثقفين الروس، ومن بين القصص التي ترجمت له كانت قصص «الحب الأول»، «أرض بكر»، «رودين» و «عشِّ النبلاء» ـ كما

obeikandi.com

ترجمت فيما بعد رواية «الآباء والبنون» التي عكس فيها مرحلة النهضة العلمية الروسية، وتأثر معظم الشباب بالنظريات العلمية الطبيعية، والنظرات الفلسفية الجديدة التي ظهرت في أوروبا في بداية القرن التاسع عشر واستمرت حتى بداية الثلث الأخير منه تقريباً، ومُمثل هؤلاء الشَّباب الابن بازارواف الذي هاجر بعيداً عن والديه ودرس العلوم الطبيعية والفلسفية وتأثَّرَ تأثراً كبيراً بالنظرية «العدمية» (النهيليستية) وعاد ليتصارع مع من حوله (حتى مع والده وعمِّهِ) حتى أصيب بداء وتوفي، لقد طرح تورغنيف هذه المسألة لأنَّها أخذت طابع الحدة لفترة طويلة، وما انتهاء الابن بازارواف إلا تأكيد من تورغنيف الكاتب على أن هذه الأفكار العدمية كانت غريبة على المجتمع الروسي، وقد قال ميخائيل نعيمة عن نتاجات تورغنيف ما يلي: «من روايات تورغنيف الأنيقة استطعت أن أدخل قصور الشرفاء وكبار الملاكين البورجوازيين، وأن أعرف ما انطوت عليه نفوس معظمهم من إيمان بأنهم ولدوا وينبغي أن يبقوا إلى الأبد فوق سائر الناس».

ومن بين الكُتَّاب الروس المشاهير استهوى اهتمام القارئ العربي كاتب ذاعت سمعته بعيداً في مختلف بلدان العالم، ويندر أن توجد أية قومية لم تسمع بهذا الكاتب العالمي ولم تترجم نتاجاته إلى لغتها القومية: نقصد هنا الكاتب فيودور دوستويفسكي، الذي ترجمت نتاجاته إلى اللغة العربية ففي عام 1914 ترجمت رواية «الجريمة والعقاب» إلى اللغة العربية، وقد ترجمها الكاتب الاجتماعي المعروف سلامة موسى الذي لعب دوراً هاماً للغاية في توجيه وتطوير الأدب العربي عامة في بداية القرن العشرين.

وفي عام 1922 ترجم حسام الدين حفني رواية «الجريمة والعقاب» مرة أخرى، وترجمت نتاجات دوستويفسكي الأخرى إلى اللغة العربية كالتالي: «الزواج الأبدي» /1926/، «الأخوة كارامازوف /1930/، «المقامر» /1945/، وفي الستينات من القرن نفسه ترجمت مؤلفات دوستويفسكي كاملة تقريباً إلى

obeikandl.com

اللغة العربية، وقد قام المترجم الشهير سامي الدروبي بترجمة أكثرية نتاجات دوستويفسكي، وهي خير ترجمة صدرت حتى الآن لأعمال الكاتب، ولكنها عن اللغة الفرنسية، ولقد ترجمت بعض الكتب لدوستويفسكي عن اللغة الروسية مباشرة ومازالت قيد الطباعة.

لقد نالت قصص وروايات هذا الكاتب إعجاب القراء العرب لاتساع اللوحة الاجتماعية التي يعكسها، فكتب ميخائيل نعيمه[62] عن نتاجات دوستويفسكي ما يلي: «في روايات دوستويفسكي الرهيبة عايشت المجرمين والمنفيين في مجاهل سيبيريا، والمهانين والمنبوذين في عاصمة روسيا القيصرية، وجميع أصناف البشر، من أنبل المتطلعين إلى فوق، والناظرين إلى أسفل، وتحسست إيمان دوستويفسكي بالأمة السلافية (التي ينتمي إليها) ورسالتها الإنسانية، وبمستقبل أفضل لروسيا تتقلم فيه أظفار الظلم والاستبداد، وتتكسر أنياب الحاجة والمذلة، فيتنفس الشعب بملء رئتيه، وتكون له الثقة بأنه لن يعرق ليهزل، وليسمن غيره بنتاج عرقه، ولن يسكن الأكواخ، ويلبس الأسمال لينعم غيره بالقصور، ويرفل في الديباج[63]»، وقال بخصوص رواية دوستويفسكي «الأخوة كارامازوف» ففي هذه الرواية الفريدة ترتفع مع الأب زوسيما إلى درجة الاستشراق الروحي والانخطاف بنور الألوهة، وتنحدر مع (سمير دياكوف) إلى حالة البهيمة، وتدور مع الوالد كارامازوف وأبنائه ديمتري وإيفان واليوشا في دنيا من الشهوات الجامحة، والأحاسيس المبهمة، والأفكار القلقة، والإيمان المطمئن، والإلحاد المتطرف وكل ما يرافق هذا من تردد وإقدام، وحيرة وثقة، وانقباض وانبساط، ومرارة وحلاوة، وتلك الدنيا هي

---

[62] أننا غالباً ما استشهدنا بأقوال ميخائيل نعيمة عن الأدباء الروس، وفعلنا هذا ليس لندرة المقولات للنقاد الآخرين، ولكن لأن نعيمة قد عاش فترة طويلة في روسيا واطلع على نتاجات الكتاب الروس باللغة الأم وتعرف على عادات وتقاليد وأعراف الحياة الروسية حتى الأعماق، ولذلك جاءت تقويماته للأدب الروسي أكثر دقة من غيرها، زد على ذلك أنه قومها من وجهة نظر أدبية كونه أديباً وكاتباً وشاعراً معروفاً.

[63] ميخائيل نعيمة أبعد من موسكو وواشنطن، ص76.

obeikandl.com

دنيانا، ونحن نخرج منها شاعرين أن الإنسان سُلَّم، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، وإن درجاته لا تكاد تعد، وإن البعض منا ما يزال في أسفل السُّلَّم، والقليل القليل قد بلغ أعلاه، أما السواد الأعظم فما يزال بين بين[64]».

المدرسة الناصرية (نسبة إلى مدينة الناصرة في فلسطين):

وكان بإمكان سورية (يقصد بلاد الشام أي سوريا الكبرى – سورية - لبنان -فلسطين -الأردن) أن تتعرف على الأدب الروسي قبل البلدان العربية الأخرى بفضل الصلات المتعددة الجوانب مع روسيا، وبفضل تلك المدرسة الناصرية التي تأسست في أواخر الثمانينات في فلسطين في القرن التاسع عشر، واشتهرت بتعليم اللغات، وطورت علاقاتها الثقافية مع النشاط التعليمي في روسيا طِراداً مع العلاقات القائمة بين روسيا وفلسطين، في تلك الآونة، وقبل قرنٍ تقريباً، تأسست المدرسة المسكوبية التي قامت ضمن نشاط (الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الروسية) بنشاط كبير، وبلغ عدد فروع هذه المدارس في سورية ولبنان وفلسطين 114 مدرسة ضمت في صفوفها 15 ألف طالب وطالبة، وكانت المدرسة المسكوبية تتميز بما يلي:

1 ـ تقوم بالتعليم باللغة العربية

2 ـ تعليمها مجاني في جميع المراحل.

3 ـ تؤمن الرعاية الشاملة لجميع الطلاب دون تمييز.

4 ـ تتابع التحصيل العالي للمتفوقين في الجامعات الروسية.

هذا بالإضافة إلى الكثير من الأسس الإيجابية الأخرى من تأمين للمعلمين المختصين، والعناية الطبية المجانية وتأمين الحاجات الضَّرورية مجاناً، وكانت الجمعية ترغب في تأسيس جامعة روسية في بيروت عام 1913 إلا أن الحرب

[64] ميخائيل نعيمة، في الأدب العربي الحديث، بيروت 1954.

العالمية الأولى حالت دون تحقيق ذلك.

نشطت المدرسة المسكوبية بين عام 1880 ـ 1914، وقد كتب أسعد داغر حول نشاط هذه المدرسة يقول: «نشأت جمعية فلسطين الروسية الإمبراطورية في فلسطين، وما لبثت أن امتدت مدارسها شمالاً واتسعت شرقاً وغرباً حتى بلغت دمشق فحمص فحماه وجازت بشمالِ لبنان حتى وصلت طرابلس الشام وملحقاتها، وأمعنت في الجهة الشمالية حتى بلغت اللاذقية وعن قريب تجتازها إلى أنطاكية وحلب فتعم كل مناطق سورية الكبرى، وبعد أن كانت مدارس هذه الجمعية تعد بالآحاد ومعلّموها بالعشرات وتلامذتها صبياناً وبناتاً ببضع مئات، أصبحت مدارسها الآن تحصى بالمئات ومعلموها كذلك وتلامذتها بعشرات الألوف وقد أخذت الجمعية الأرثوذكسية تزاحم الإرساليات الكاثوليكية والإنكليزية، وأوشكت أن تنال قصب السَّبق عليها في مضمار التقدُّمِ والنَّجاح والوصول إلى ضالتها المنشودة، وكثيراً ما كانت مدارسها لتفضل على غيرها من المدارس الإنكليزية أو الكاثوليكية[65]».

من أشهر خريجي مدارس هذه الجمعية كان ميخائيل نعيمة اسكندر جبرائيل كزما، خليل السكاكيني، خليل بيدس، سليم قبعين، أنطون بلان، نسيب عريضة، رشيد أيوب وغيرهم، ولعب بعض هؤلاء دوراً هاماً في ترجمة الأدب الروسي إلى اللغة العربية مباشرة، دون لغة وسيطة ـ فرنسية أو إنكليزية ـ كما كان يحدث سابقاً، ومن تلاميذ العلاقات الثقافية الروسية العربية كانت الفتاة الفلسطينية رمزة عوافية التي أنهت دراستها في موسكو في مطلع القرن العشرين وتعرفت على بعض الكتاب الروس المشاهير أمثال ليف تولستوي وغوركي وغيرهما، وكتبت في رسالتها المؤرخة في 4 تشرين الأول 1904 إلى ليف تولستوي ما يلي: «إن أهالي بلدنا يكنون لكم الاحترام الكبير، وينطقون باسمكم بتبجيلٍ وتقديس، إنهم يرغبون في مصافحتكم والتحدث إليكم حول

[65] أسعد داغر المقتطف، أكتوبر 1901، ص901 ـ 904.

obeikandl.com

مشاكلهم..[66]».

ولقد ساهمت رمزة عوافية وأنطون بلان بترجمة بعض نتاجات تولستوي وغوركي وغيرهما إلى اللغة العربية ومنها نتاجات تولستوي «البعث» (1909)، «سلطة الظلام» (1911)، «قصص شعبية» (1913)، ومن خلال هذه الترجمات تعرف القارئ العربي كيف قام الشعب الروسي خلال تاريخه الطويل ببذل كل ما لديه، وضحَّى بأغلى ما عنده في الدِّفاع عن الوطن الروسي، ويتعرف القارئ إلى تلك الآلام والمصائب التي تسببها الحروب للشعوب، وبنفس الوقت يطلع القارئ على السِّمات التسامُحيَّة للشعب الروسي وطبيعته المسالمة.

كما ترجم هؤلاء المترجمون في بداية القرن العشرين الكثير من أعمال مؤسس القصة القصيرة في الأدب العالمي أنطون بافلوفيتش تشيخوف، الذي لقيت نتاجاته المترجمة: «د . ب» «حياتي»، «فانكا جوكوف»، «بستان الكرز»، «الخال فانيا» وغيرها ترحيباً واسعاً لدى القراء العرب، وقد تأثَّرَ الكُتَّاب العرب وخاصة كتاب القصة القصيرة بتشيخوف، واعترفوا له بالفضل الكبير في تربية مواهبهم وصقلها.

وهذا ما قاله محمود تيمور الذي يُعتبر مؤسس القصة القصيرة في الأدب العربي: «عندما بدأت بالتعرف على الأدب العالمي، وأنتقي الكتب الممتازة لمطالعتي الشخصية، إنني عند ذلك تعرفت على تشيخوف العظيم، إنني أحببت قصصه القصيرة التي أصبحت بالنسبة لي مصدراً للمعرفة والقوة، ولقد تعرفت إلى الأدب الغربي، ولكني بقيت كالسابق أميناً لحبي وإخلاصي بالنسبة لتشيخوف ـ الكاتب القصصي العملاق، الذي بفضله أحببت تولستوي، تورغينيف، دوستويفسكي، غوركي وغيرهم من الكُتَّاب الروس المشاهير، ما زلت حتى الوقت الحاضر أكن آيات الاحترام والتقدير للأدب الروسي، ولكني

---

[66] انظر مجلة «نجمة الشرق»، خير الله أرغاشيف «ليف تولستوي والمشرق العربي» 1964. العدد 1، ص157 (باللغة الروسية).

obeikandi.com

أبقي لتشيخوف مكان الصَّدارة بين كتاب القصة العباقرة، وأشعر بأنَّهُ يوجد خيط يصلني وبشكلٍ وثيقٍ بالأدب الروسي، ولقد فكرت في هذا الأمر مطولاً، وخلصت إلى نتيجة مَفادها إنه يوجد بين الأدب الروسي وآداب الشعوب الشرقية الكثير من صلات القُربى، وكذلك بين الروح الشرقية والروسية، ومن الممكن القول بأنهما توأمان، إذ يوجد فيما بينهما تطابق كبير، وخاصة في طرائق التعبير والمشاعر والعواطف .. وعندما أقرأ تشيخوف أحسَّ بأن أبطاله وأشخاصه هم أُناسٌ من مُجتمعنا، ويتسمون بنفس السمات والأخلاق والعادات[67]».

غوركي والقُراء والنقاد العرب.

لقيت نتاجات غوركي إقبالاً واسعاً بين القُراء العرب، وخاصةً بعد ترجمة بعض نتاجاته من اللغة الروسية إلى العربية مباشرةً، وخاصةً تلك التي قام بترجمتها أنطون بلان ونشرت في جريدة «روح العصر» مثل: «الكهل» /1906/، «أغنية عن الصقر» /1913/ وتجب الإشارة إلى أن القارئ العربي في سوريا ولبنان وفلسطين كان أسبق من غيره في التعرف إلى نتاجات غوركي لوفرة الصحف والمجلات التي اهتمت بالأدب الروسي، وخاصة تلك الصحف والمجلات التي ظهرت بعد قيام الثورة السورية الكبرى عام /1925/، ونتيجة للمد الثوري التحرري، والنضال ضد الاستعمار الفرنسي، ومما ساعد على ذلك وجود المترجمين المجيدين للغة الروسية، وانتشار الفكر الثوري الاشتراكي في سورية ولبنان وفلسطين قبل غيرها من البلدان العربية.

لقد ترجمت فيما بعد بعض الأهاجي من سلسلة «تصريحاتي» ونُشرت في القاهرة ضمن مجموعة «مختارات من الأفكار الجديدة للكاتب الروسي المعروف

[67] مجلة «الشرق المعاصر» العام 1958، العدد 9، ص65 . 66 . (باللغة الروسية).

obeikandl.com

مكسيم غوركي». ومن بين هذه النتاجات كان «الملك الذي يحمل رايته عالياً»، «أحد ملوك الجمهورية»، و«فرنسا الرائعة»، كما نشرت مقالته بعنوان «عن اليهود»، وجميعها من ترجمة سليم قبعين، الذي انتقل بعد ذلك إلى ترجمة قصة «الاعتراف» ومسرحية «الكهل».

وتمتاز هذه الترجمات بقيمتها الأدبية العالية إذا ما قورنت بترجمات المترجمين المهاجرين، لأن قبعين قد أجاد اللغة الروسية إجادةً مُمتازةً، وترجم هذه النتاجات بدقةٍ وعنايةٍ.

ولقد سخَّرَ قبعين قِسطاً هاماً من حياته العملية لنشر فِكر مكسيم غوركي لأنه أُعجب إعجاباً جمَّاً بفكرهِ الثوري، وبمبادئه الإنسانية في الدِّفاع عن حُقوق الطَّبقات المُضطهدة.

وساهمت مجلة «الطليعة» بدورٍ هامٍ في نَشر العديد من نتاجات مكسيم غوركي في الثلاثينات وكذلك مجلة «الدهور» وغيرها من المجلات الصادرة في مختلف البلدان العربية، خاصة في فترة الثلاثينات، التي شهدت العديد من الأحداث التي تتعلق بالكاتب نفسه شخصياً، ففي عام 1932 تمكَّن غوركي وبعد نضال طويل من تأسيس اتحاد الكتاب السوفييت وعقد مؤتمره الأول، وفي عام 1936 عمَّ العالم نبأ وفاته، وكان لهذا الحدث الأخير وقع كبير في قلوب جميع القراء في العالم، فعقدت الاجتماعات والندوات الأدبية وألقيت المحاضرات، ونشرت الدراسات عن حياة ونتاجات الكاتب البروليتاري العظيم، وترجمت فيما بعد أكثر أعمال غوركي شهرةً كرواية «فاما غورديف» ورواية «الأم» و «عمل أسرة آرتامونوف» و«الأصدقاء الثلاثة» و«جامعاتي» و« في الحضيض» و«الكهل» و«الأعداء» وغيرها الكثير.

وتجب الإشارة إلى أن النقاد والكتاب العرب قد أحبوا نتاجات غوركي الأدبية، واستشهدوا بأفكاره، وتداولوا الأمثال الشعبية، والتراث الفلكلوري، الذي عكسه بنتاجه وأهتدى القُراء والكُتاب معاً بنور أفكاره ووضوحِ رؤيته، ولقد

obeikandl.com

أصبحت رواية «الأم» من أشهر الكتب الأدبية الموجودة بين أيدي الشباب العرب، كما بالنسبة لشباب العالم ككل، وأصبح البطل الأدبي بافل فلاسوف مثالاً يحتذى به من قبل كل من يحب القيام بأعمال ثورية، واستخدم الشباب الثوار العرب أقوال الكاتب البروليتاري في نضالهم ضد الظلم والاستغلال الإقطاعي والبورجوازي، واستشهد النقاد المعاصرون الواقعيون بأقوال غوركي في تمجيد الإنسان على أنه صانع المعجزات وأساس الوجود، كما تنعَّم المناضلون بطبيعة التفاؤل المستقبلية المتجسدة في نتاجات غوركي، واعتنق الكثير من القُراء والكُتاب أفكاره في تمجيد الإنسان صانع الحياة والمستقبل، وها هي نجلة حامد إحدى النساء الواقعيات المتفتحات في الأدب العربي تقول في مقالة لها بعنوان: «كاتب البروليتاريا ومغني المشردين»، أثناء عرض المقارنة بين نتاجات غوركي وتراث دوستويفسكي، ما يلي «إن عالم غوركي هو عالم الثوار من فقراء وعمال ومشردين، ولا يشابه عالم دوستويفسكي - عالم الأمراض البورجوازية الصَّغيرة، لقد كتب غوركي عن المستقبل المتفائل والوضاء للبشرية، بغض النظر عن مأساة ذلك العصر[68]».

هكذا نلاحظ بأن المواطنين العرب، رجالاً ونساء وخاصة الكتاب منهم قد تمكنوا من الاطلاع جيداً على الأدب الروسي السوفييتي، ليس هذا فحسب، بل وقادرين على المقارنة بين كاتبٍ وآخر، وحصل هذا لأنه في مرحلة تصاعد حركة التحرر الوطني ظهرت في الدول العربية المقدمات الضرورية لاستقبال فكر الكاتب الروسي العظيم مكسيم غوركي، وهذا ليس مصادفةً لأن نتاج غوركي قد ساعد الكتاب العرب التقدميين في بحثهم الدؤوب عن طرائق فنية مُناسبة للتصوير الفني للواقع، وجعل الإنسان محوراً لهذه الأفكار الجديدة، وبالطبع، كل واحد من الكتاب كان يجد في نتاج غوركي ما يلبي متطلباته الروحية وأبحاثه الفكرية والفنية.

---

[68] الطليعة المصرية، عدد آذار 1968.

obeikandl.com

لهذا ولغيره يبقى مكسيم غوركي من أكثر الكتاب العالميين شهرةً بين القُراء العرب، احتل ويحتل مكاناً بارزاً حتى الوقت الحاضر، ومما يشهد على ذلك التراجم الكثيرة لنتاجاته إلى اللغة العربية وطبعها بمئات ألوف النسخ، وبفضل هذه الترجمات لنتاجاته المشبعة بالروح الثورية للنضال ضِدَّ المستغلين، أصبح غوركي وكأنَّهُ حليف في نضال الشعوب العربية من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، ـ بدءاً من التعارف الأول، وحتى الوقت الحاضر ـ فكانت الروح الثورية المتجسدة في نتاجات غوركي قريبة من عوالم الكتاب العرب التقدميين، وجميع القراء، وعلى وجه الخصوص الشباب لما يمتازون به من روح ثورية.

ومن بين الكتاب والنقاد الذين تناولوا تراث مكسيم غوركي بالبحث والدراسة كان ميخائيل نعيمة، الذي أشار إلى أهمية الكاتب العالمية وشهرته على المستوى العالمي إذ كتب يقول: «ليس هناك أي شعب كان، كبيراً أو صغيراً، لم يستمتع بنتاجات الكاتب الإنساني العظيم مكسيم غوركي[69]».

وقال الناقد المصري سلامة موسى في إحدى مقالاتهِ عن الأدب الروسي: «الحياة عند غوركي هي أجمل ما في الكون، والحياة النشطة الناهضة هي جوهر الجمال، ويجب ألا ننسحب من الحياة في نُسك أو عُزلة، كما ويجب ألا نقتنع بالكفاف ونجبن عن الإقدام ونلجأ إلى الكهوف ونختبئ.

وأبطال غوركي هم من العُمال، الذين نهضوا، فغسلوا رؤوسهم من الجَّهلِ والخرافات، وتعلموا وقرأوا، وأصبحوا ثائرين، إن كلاً من أبطال قصصه يمثل فترةً من فترات الحياة عند غوركي نفسه بل أن حياته تختلطُ بمؤلفاته، ومن هنا يظهر ما فيها من صدقٍ وكفاحٍ.

حياة غوركي هي مؤلفاته، ومؤلفاته هي حياته[70]».

---

[69] في كتاب سلامة موسى، الأدب للشعب، القاهرة 1954، ص58.

[70] مجلة الآداب، بيروت 1958، العدد 2 ص63.

obeikandl.com

إنَّ مكسيم غوركي ككاتب، وثوري مناضل قد أثَّرَ تأثيراً إيجابياً وكبيراً على الكتاب العرب، ولقد ساعدت الرومانسية الثورية، والواقعية الاشتراكية فيما بعد في تكوين الأسس النظرية الصحيحة للكثير منهم، وتوضيح معالم المذهب الأدبي، الذي يتبعونه في نشاطهم الأدبي.

الأحداث السياسيَّة والأدب في المشرق:

مع بدء الحرب العالمية الأولى انتهت المرحلة الأولى من تعرف العرب على أدب غوركي، وعلى الرَّغم من أن تلك المرحلة في حقيقة الأمر لم تكن غنية من حيث الكمية، ولكنها ذات أهمية كبرى من عدة جوانب أخرى، وتمتاز بميزاتٍ خاصةٍ إذا ما قورنت بالمرحلة، التي عقبتها، ولقد اعترف المترجمون الأوائل لمكسيم غوركي على أنه كاتب ثوري عظيم، مدافع شجاع عن حقوق الطبقات الفقيرة المضطهدة، ولقد تمكنت نتاجاته الأولى المترجمة إلى اللغة العربية أن تعكس هذه السمة الأساسية في نتاج الكاتب ككل، وكان عليهم (أي المترجمين) إبراز تلك النتائج، التي بإمكان المشرق أن يتوصل إليها، ويستفيد منها، ومن المهم أيضاً شيء آخر، على الرَّغم من أنه يخص الظروف الخارجية: «كل المترجمين كانوا بشكلٍ أساسي من بلد واحد ـ هي سورية، وأغلبهم كان من المعلمين أو من الصحفيين[71]».

لقد أدت التبعية السياسية والاقتصادية من جانب الدول العربية للدول الأوربية، وزيادة الارتباط الاقتصادي إلى تكوين الأسباب المباشرة في هذه البُلدان لبدء النضال من أجل التحرر الوطني من نير الاستعمار العثماني، وضد الاستغلال والاضطهاد الإمبريالي، إن وضع الاستغلال الذي عاشته الدول العربية، وعانت منه مُطولاً من جانب الاستعمار الغربي لم يختلف مُطلقاً عن وضع أيِّ شعبٍ آخر

[71] غالي شكري، الأفكار الثورية في أدبنا العربي المعاصر القاهرة 1965، ص199.

obeikandi.com

وقع تحت ظل الاستعمار السياسي والاقتصادي، ولكن تواجد إنكلترا وفرنسا في منطقة الشرق الأوسط، وانتشار اللغات الفرنسية والإنكليزية ساهم إلى حدٍّ كبيرٍ في التقارب بين الثقافات العربية والغربية، والاستفادة من الحضارة الأوربية التي كانت قد قطعت شوطاً هاماً في المجال العلمي، وقد كتب عمر الدسوقي بخصوص هذا الموضوع: «أولاً: نحن قد وقعنا تحت تأثير الدول الأوربية في السلوك وفي نمط الحياة، لأن الأدب هو في واقع الأمر مرآةً للمجتمع، الذي يعيش فيه الكاتب، ونحن رأينا بأن أدبنا قد تغير بسرعة، وأصبح يقلد إلى درجة ما، الأدب الأوربي، والحياة الأوربية، التي أصبحت مثالاً يحتذى به في الحياة المادية والروحية، وثانياً: إن تقليدنا لمختلف المذاهب في الأدب الأوربي يعتبر نتيجةً مُباشرةً لما وصل إلينا بعد الحرب العالمية الأولى من مسموعات عن الرَّمزية، والرومانسية، والواقعية وما إلى ذلك، وأكثرية الكتاب والشعراء، الذين تأثروا بهذه الاتجاهات غالباً ما كانوا يقعون في أخطاء التقليد الأعمى، وعند ذلك كان الأمر، كما بالنسبة للأدب الأوربي، إذ أصبحت هذه الاتجاهات نتيجةً وانعكاساً للتطور الاجتماعي والاقتصادي[72]».

إن نضال الشَّعب العربي ضِدَّ الظلم والاضطهاد من جانب الإمبراطورية العثمانية، وضد أطماع الدول الغربية في كَبت الحريات والقضاء على الاستقلال، والنضال ضد الأطماع والاعتداءات الصهيونية الإسرائيلية والإمبريالية العالمية أدت إلى بعث الثقافة القومية العربية ونهضتها من الحضيض، لتسير في خطٍّ بيانيٍّ صاعدٍ نحو المستوى المطلوب، حتى تسير على قدم المساواة مع الأدب الأوربي والثقافة العالمية ككل.

وعلى أثر التناقضات المحتدمة في العالم الرأسمالي والصراعات العنيفة في بداية القرن العشرين، وثورة عام 1905 في روسيا، ونهضة حركة التحرر الوطني في بداية القرن العشرين، وقيام ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917، التي

[72] عمر دسوقي، عن الأدب المعاصر، بيروت 1955، الجزء الثاني، ص50 . 54.

أصبحت تمثل بداية مَرحلة جديدة في تطور ليس روسيا فحسب، بل جميع البشرية، وتشكِّل بداية لعصر الاشتراكية وحركات التحرر الوطني، والثورات التقدميَّة، كل هذا ساهم في إيقاظ الوعي القومي الذاتي للكثير من شعوب المعمورة، بمن في ذلك الشَّعب العربي.

لقد كانت ثورة أكتوبر أول ثورة في تاريخ البشرية استهدفت تحرير جميع المظلومين في جميع قارات الأرض من الاستغلال والاضطهاد والجهل، وتحقيق العدالة والمساواة التامتين في العلاقات القائمة بين جميع شعوب الأرض، وقد برهنت السُّلطة السوفييتية على هدفها الشريف بإطلاق الحرية ومنح الاستقلال للعديد من المستعمرات التابعة لروسيا القيصريَّة سابقاً، وأرشدتها على الطريق الصحيح من أجل التطور المستقل وبناء الحضارة والثقافة الوطنيتين.

ولم يتمكن المستعمرون البريطانيون والفرنسيون من إخفاء حقيقة الثورة الروسية عن العرب وحقيقة البرنامج الاشتراكي الذي أقرَّتهُ قيادة الثورة الاشتراكية، وتسربت أنباء الثورة الروسية إلى مصر عن طريق الصحافة، وعن طريق أولئك المصريين الذين ناضلوا ضد النَّير الاستعماري البريطاني، وهكذا فقد أدركت الشعوب المغلوبة على أمرها أنه حدثت في روسيا ثورة كبرى تحمل مقومات التحرر لجميع الشعوب التي يضطهدها ويستغلها الإمبرياليون.

وقد ترجم إلى اللغة العربية، ونشر بين العرب نداء مجلس مفوضي الشعب (إلى جميع المسلمين الكادحين في روسيا وفي الشرق) الذي أكد على أن العقائد الإسلامية والعادات والتقاليد (حُرَّةً مُصانة)، وجاء في النداء ما يلي: «أيتها الشعوب المسلمة، نظموا حياتكم القومية بحرَّيةٍ وبلا عائِق، فلكم الحق في ذلك، واعلموا أن حقوقكم، مثل حقوق جميع شعوب روسيا، تحميها بكُلِّ بأس الثورة وهيئاتها مجالس نواب العمال والجنود والفلاحين[73]».

وخاطبت الثورة الروسية شعوب الشَّرق من فُرسٍ وعرب وأتراك وهنود وغيرهم،

[73] وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي، المجلد 1، موسكو، 1957، ص34 (باللغة الروسية).

obeikandl.com

إذ أعلنت إلغاء جميع الاتفاقات السريَّة التي عقدها القَيصر المخلوع من أجل تقاسم تركيا وإيران، ونادت الشعوب المغلوبة على أمرها، والمستقلة من قبل الاستعمار الفرنسي والبريطاني بما يلي: «أيتها الشعوب لا تضيعي الوقت، واخلعي غُزاة أراضيك المزمنين، وعلى راياتنا سنحمل التحرر لشعوب العالم المضطهدة، وكانت النتيجة أن عشرات الدول قد نالت استقلالها بدعم من الاتحاد السوفيتي وفي مقدمتها سورية ولبنان والعراق ومصر ودول المغرب ...

وجاءت النداءات إلى مُسلمي الشَّرق على هذا الشكل من قادة الثورة البولشفية:

يا مسلمي روسيا

يا مسلمي الشرق

في هذا السبيل لتجديد العالم ننتظر منكم التعاطف والمساندة مع ثورتنا الروسية».

ولقد قدمت الحكومة السوفييتية، منذ أيامها الأولى الدعم والتأييد للشعوب العربية، وتمَّ توضيح دور السُّلطة السوفييتية على لسان وزير خارجيتها تشيتشرين، إلى أحد السفراء السوفييت في الشَّرق الأوسط إذ قال له: «نحن نرى أن دورنا ورسالتنا في أن نكون أصدقاء وحلفاء طبيعيين للشعوب المناضلة في سبيل تطورها الاقتصادي والسياسي المستقلين».

ولقد اتسمت المرحلة الممتدة من عام 1918 إلى عام 1926 بعدةِ ميِّزاتٍ أساسية على طريق النضال التحرري، الثورة المصرية 1919، المقاومة الشعبية (حتى بداية عام 1923)، الانتفاضات الشعبية في سورية ولبنان (في اللاذقية 1919 ـ 1921)، في دمشق ـ 1920، في حوران آب 1920، في سورية الشمالية 1921، في جبل الدروز آب 1922 -1925 وغيرها) في العراق (مُقاومة الاحتلال البريطاني ـ ربيع 1918، الانتفاضة الكردية، ربيع وصيف 1919، ثورة الشعب العراقي ـ من حزيران حتى تشرين الثاني 1920، في البحرين 1918 ـ 1920، في عدن 1919، في عمان 1919 ـ 1920، الأحداث في السودان 1918 ـ

obeikandl.com

1921، وغيرها من الأحداث الهامة والعاصفة)، التي أدت إلى استقلال هذه الدول عدا فلسطين.

وكانت هذه الانتفاضات والثورات الشعبية تستمد التجربة والخِبرة والعون مِن جانب السُّلطة السوفييتية الفتية.

وهكذا انخرطت الشعوب العربية في معمعان النضال ضد الاستعمار والتخلف في آن واحد، والعمل من أجل بناء حياةٍ جديدةٍ حُرَّةٍ كريمةٍ لا يشوبها أي نوع من الاضطهاد الخارجي أو الداخلي، ومن أجل التحرر الوطني والاجتماعي كلياً، لكنَّ هذه الطريق لم تكن سهلة، خاصة أن الشعب العربي لم يكن يملك في تلك الآونة التاريخية تقاليد نضالية وثورية، ولم تكن له أحزاباً ذات نظريات سياسية وطنية مُحددة، وقِلَّة العناصر القيادية الطليعية، التي كان بإمكانها قيادة النِّضال، وكل ما في الأمر أنه كان لدى العرب شعور واحد قد جمع فيما بينهم بشكلٍ عفوي، ألا وهو التخلص من المستعمرين والعيش بحريةٍ وكرامة.

نِضال الأدباء من أجل الاستقلال:

لقد أثر هذا النضال تأثيراً مباشراً في تفتيح العقول والمواهب الأدبية، فبدأ الكُتاب العرب القلائل في تلك الحقبة في نشر نتاجاتهم ذات السِّمة الاجتماعية والسياسية، موجهين نضالهم ضد الاضطهاد الأجنبي وعملائه في الداخل، ولقد لعب الأدب العربي دوراً هاماً في إشعال الروح الوطنية، وتجميع القوى المناضلة.

وناهيك عن أن الأدب العربي في كافة الأقطار العربية يشكل وحدة متكاملة نسبياً بغض النظر عن المواضيع والقضايا الملحة التي يتناولها أدباء كل بلد من البلدان العربية على حدة، فقضايا النضال، التي عكسها الكُتاب الجزائريون خلال نضال الشَّعب الجزائري فترة طويلة ضد الاحتلال الفرنسي تختلف عن القضايا التي تناولها كُتاب مِصر أو العراق أو سورية، إذ حاول كتاب كل بلد أن يعكسوا القضايا الملحة التي تعاني منها شعوب هذه البلدان على اختلاف

obeikandl.com

الظُّروف والمعضلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد رأينا أن الأدب العربي في عصر النهضة وفي الوقت المعاصر يستمد قوته من الأدب العربي القديم أما الآن فإننا نجد أنَّ الأهداف المشتركة في النِّضال من أجل الاستقلال، قاربت بين الكتاب التقدميين، وساهمت في إحياء الثقافة القومية، التي أعطت للشرق والغرب الكثير من المقومات الحَضارية، إن الكُتاب التقدميين العرب يخوضون غمرة الصراع في جبهة واحدة من أجل دعم الجوانب الإيجابية في التقاليد الثقافية العامة، ومن أجل صيانة التراث الثقافي وتطويره وإقامة العلاقات المتينة بين الشعوب لمتابعة مسيرة حركة التحرر الوطني.

ومن أهم العوامل الثقافية الأساسية من أجل تطوير الأدب العربي عامةً، وتمتين أواصر التعاون الثقافي بين الدول العربية كان، وما يزال عامل اللغة العربية الفُصحى، التي عمل على تطويرها حسب الأصول اللغوية العلمية المعاصرة الكثير من الكتاب ـ أعضاء الرابطة الأدبية التي تكونت عام 1921 في سورية، ومن أهم الكتاب الذين شاركوا في إنشاء هذه الرابطة كان خليل مردم بك، ومحمد الشريفي، وسليم الجندي، وشفيق جبري، وحليم دموس، وأحمد شاكر الكرمي، والأمير مصطفى الشهابي، وعز الدين التنوخي، وغيرهم.

ومن المهم الإشارة إلى أن فترة العشرينات والثلاثينات قد اتسمت بالنشاط الثوري في البلدان العربية، كما تجب الإشارة إلى أنه في طليعة النضال الثوري التحرري ضد الاستعمارين الفرنسي والبريطاني كان يقف الكتاب والشعراء التقدميون الذين انتموا إلى الأحزاب الوطنية والتقدمية التي تكونت في تلك الآونة، وأخذ النضال شكلاً منظماً، إذ تمَّ الاعتماد على التجارب التاريخية الطويلة وعلى الدَّعم المتعدد الجوانب من جانب الاتحاد السوفييتي، ولقد رفع الشُّعراء والكتاب التقدميون شعار النِّضال من أجل التحرر الوطني لبلدانهم، وبعث الثقافة القومية، لهذا وجهوا نشاطهم الأساسي لعكس حياة الفلاحين البسطاء

obeikandi.com

في ظل الأنظمة الإقطاعية والبورجوازية الزِّراعية، وحياة الموظفين الصغار والمثقفين الثوريين، وتناول البعض من الكتاب شتى القضايا الاجتماعية المستعصية الحل، وناقشوها بكُلِّ جُرأةٍ ومن هذه القضايا مسألة تحرر المرأة ومساواتها بالرجل وزواجها بناءً على رغبتها دون إجبارٍ أو إكراه.

ومن بين هؤلاء الكُتاب التقدميين كان نجيب الرَّيس، أنور العطار، علي الطنطاوي، محمد البزم، بدوي الجبل، عمر أبو ريشة، وغيرهم، وتجب الإشارة هنا إلى أن الأكثرية الساحقة كانوا قد تلقوا تعليمهم في دول أوروبا، وتعرفوا هناك على منجزات الحضارة الأوربية عن كثب، واكتسبوا معارف العمل العلمي، والتحليل الأدبي وما إلى ذلك، ولقد نقلوا إلى الأدب العربي المذاهب الأدبية الجديدة، والأنواع الأدبية ـ الأقصوصة، القصة، الرواية، وكذلك خصائص الشعر الأوربي الحديث (القياسات الشِّعرية المعاصرة) التي تختلف اختلافاً كبيراً عن الشعر العربي الكلاسيكي، ولقد قاموا بدورٍ هامٍ في دراسة وتطوير اللغة العربية بقواعدها ونحوها مستفيدين من علوم اللغة المعاصرة والمتطورة في بُلدان أوروبا.

في هذه الفترة بالذات، طرأت تغيرات لا يُستهانُ بها، ليس في مجال الشكل الفني وحسب بل في محتوى النتاجات الأدبية أيضاً، وبرزت ضَرورة تصوير الجديد على ضوء المعطيات الحاضرة، وهنا نرى أن بعض الكتاب العرب السوريين في العشرينات والثلاثينات قد وقعوا تحت تأثير الاتجاهات الأدبية والفلسفية المنحطة في أوروبا، وحاولوا أن يستغلوا المثقفين العرب عن المهمات الأساسية في النضال من أجل التحرر والاستقلال السياسي، وكانت تلك الاتجاهات، التي تأثروا بها تخفي وجهها الحقيقي بشتى الوسائل، وهي ترفع شعارات متطرفة صاخبة مثل: (التجديد)، (الحرية في الأدب والفن وغيرها)، ونتيجة لهذا وقع الكثير من الكُتاب الشباب في أخطاء كثيرة، متأثرين بشتى المسائل الجانبية، فابتعدوا بهذا عن القضية الأساسية الهامة وهي النضال ضد

obeikandi.com

الاستغلال والاضطهاد من جانب الإمبريالية العالمية.

وبغض النظر عن ابتعاد بعض الكتاب عن المهمة الأساسية وعن المواضيع الأدبية الهامة، يبقى الاتجاه الأساسي الصاعد في الأدب العربي المعاصر، هو الاتجاه الواقعي، فبرزت أولى النتاجات الأدبية في ذلك الوقت، وكان منها «سيد قريش» لمعروف الأرناؤوطي 1929، الذي أثَّر بمقالاتِهِ الأدبية والنقديَّة على نتاجات الكُتاب أمثال شكيب الجابري، وفؤاد الشايب ومحمد النجار، وخليل هنداوي، وغيرهم ممن عكسوا أحداث الثورة السورية الكبرى التي قامت عام 1925، بقيادة سلطان باشا الأطرش وغيره من الشخصيات الوطنية.

كما عكس هؤلاء الكتاب الأبطال الوطنيين، الذين دكوا مواقع الاستعمار الفرنسي، واعتبرت هذه الثورة، التي استمرت حتى عام 1927، فاتحة الثورات التحررية في الوطن العربي في الوقت المعاصر، وعلى الرَّغم من أن هذه الثورة لم تحقق الاستقلال النهائي، فقد زعزعت مواقع الاستعمار الفرنسي بكل معنى الكلمة مما اضطر الفرنسيين إلى مُمارسة القتل والتعذيب والسجن للكثير من المواطنين الأحرار، ومن النتائج الإيجابية لهذه الانتفاضة أنها ساهمت مساهمة عظمى في نشر الروح النضالية الوطنية من أجل الاستقلال، وفضحت بنفس الوقت عملاء الاستعمار من البورجوازية المحلية وأضرمت النار في عقول وقلوب المثقفين ليعكسوا هذا النضال الوطني ويدعموه بكل إمكاناتهم، وهذا ما نلاحظه في نتاج العديد من الكتاب في الثلاثينات وفيما بعد، وقد أثَّرَ الكتاب السوريون التقدميون تأثيراً فعالاً على تطور الوعي القومي للشعب، وخاصة من خلال النتاجات الأدبية والمقالات الاجتماعية المتفرقة التي تمَّ نشرها في الصحف والمجلات التقدمية وبشكلٍ أساسي في مجلة «الطليعة»، وقام المترجمون بترجمة الكثير من الأعمال الأدبية والنقدية والسياسية والاقتصادية التي لها فعالية كبرى على تطور الحياة السياسية والاجتماعية عامة، وجميع هذه الأعمال قد توجهت من أجل وضع التطور الأدبي في مساره الطبيعي.

وترجمت في هذا المجال الكثير من أعمال ونتاجات الفلاسفة والأدباء الواقعيين في الأدب الأوروبي الغربي، وتحت تأثير هذه الأفكار فقد تكونت قناعات الكثير من ممثلي الاتجاهات الواقعية في الأدب العربي، وكتبت المستشرقة السوفييتية المعروفة البروفيسورة دالينينا أ. أ ما يلي:

«لقد عرف الكتاب العرب النتاجات الأوربية الكلاسيكية جيداً، وحسب اعتراف هؤلاء الكتاب أنفسهم، أنهم تربوا على نتاجات موباسان، وتشيخوف، وبيلينسكي، ولهذا أصبح الاتجاه الواقعي هو السِّمة المميزة في نتاجات الكتاب العرب في مطلع القرن العشرين[74]».

هذا وظهرت أمام الكُتاب العرب العديد من المسائل الحياتية الهامة، ومن بينها التفاوت الاجتماعي والتناقضات الطبقية، والظروف الصعبة لحياة العمال والفلاحين والبطالة وغيرها من المعضلات، التي يعاني منها ملايين الكادحين العرب في ظروف النظام الإقطاعي البورجوازي لامتلاك الأراضي، ومن سلطة المستغلين البيروقراطيين الذين حاولوا تحطيم إرادة الشعب العامل، ولهذا ألَّفَ الكُتاب العرب نتاجاتهم على أساس الواقعية النقدية، الرومانسية الثورية والواقعية الاشتراكية التي تطورت في الأدب الروسي ـ السوفييتي إلى الأمام عبر مراحل هامة.

الصراع بين القديم والحديث:

وفي الوقت الذي استخدم فيه الكتاب العرب مُختلف المذاهب والمدارس الأدبية وجهوا اهتمامهم الأساسي لأهم القضايا والمعضلات الحياتية الهامة والملحة التي تهمُّ كافة الكادحين، وقد كتب سلامة موسى مُشيراً إلى الاستفادة من العلوم المعاصرة الأُخرى بما يلي: «إن العلم قد علمنا وما يزال يعلمنا لفهم الرومانسية

[74] دالينا أ. أ. النثر العربي المعاصر، موسكو 1961، ص4 ـ 5 (باللغة الروسية).

obeikandl.com

الجديدة، ويجب علينا أن لا ننسى على الإطلاق الواقع القائم المظلم، والفقر المدقع والأمراض والأوبئة[75]».

وبغضِّ النظر عن أن القارئ العربي والكتاب العرب قد تعرفوا إلى أعلام الأدبين الفرنسي والإنكليزي أول الأمر، ثم اطلعوا على الأدب الروسي عبر اللغتين الفرنسية والإنكليزية، فقد أُعجبوا إعجاباً عظيماً بالأدب الروسي.

يقول الدكتور الشاذلي في هذا المجال ما يلي: «إن التأثيرات الأجنبية على الأدب العربي قد جاءت في بداية الأمر من جهة الآداب الغربية، ولكن اهتمامنا في مصر وفي باقي الدول العربية بالآداب الروسية قد بدأ بعد ثورة عام 1919، عندما كان على البلد أن يهتم اهتماماً جاداً بالأدب، الذي عليه أن يعكس أهم القضايا التي تهم الشَّعب، والتي يرغب في تحقيقها، والذي عليه أن يكون شعور الحب عند المواطنين تجاه الوطن، ويمتاز الأدب الروسي ـ السوفييتي بهذه الميزات الإيجابية التي من شأنها أن تأخذ بيد المواطن العربي على طريق نضاله، وتبث فيه شعور الحب للوطن والدفاع عنه، ولقد وجد شعبنا هذا في الأدب الروسي والسوفييتي الغني بالمآثر الثورية[76]».

كما قال الناقد الأدبي يحيى حقي في مجال تأثير الأدب الروسي على الكتاب العرب المعاصرين: «إنني أكون محقاً، وبشكلٍ قطعي، إذا قلت بأن نتاج جميع الكتاب العرب المحدثين يتعلق وبشكل وثيق بالأدب الروسي ـ صاحب التأثير الأكبر عليهم جميعاً[77]».

وفي الكثير من الأحيان نصادف مختلف المقالات والدراسات النقدية التي تتناول الأدب العربي ـ المعاصر منه والقديم ـ بالدراسة والتحليل، ونادراً ما يجد الباحث

---

[75] سلامة موسى في كتاب طريق التكون والنضال، ص14.

[76] د. محمود الشاذلي، أطروحة دكتوراه بعنوان «التأثير الفني والفكري للأدب الروسي ـ السوفييتي على الرواية المصرية»، موسكو 1973، ص34.

[77] يحيى حقي، فجر القصة المصرية، القاهرة، دون تاريخ ص82.

obeikandi.com

دراستين أو عدة دراسات تتفق في الرأي، ومن الممكن الإشارة إلى نوعين أساسيين من هذه الدراسات، ألا وهما الاتجاه التقدمي المنفتح الذي يؤكد على أن أدبنا العربي عامةً، والسوري خاصةً، يتصل بالحضارة والثقافة العالمية ككل، ويتأثر بها، ويؤثر فيها، وخاصة في مجال الأنواع الأدبية المتداولة كالأقصوصة والقصة والرواية والمسرحية، كما يؤكد النقاد على أن أدبنا العربي قد تأثر بدرجةٍ كبيرةٍ بالآداب الفرنسية والروسية والإنكليزية، والسبب في هذا هو أن الواقع العربي في عصر النهضة وظروف التفتح الثقافي والحضاري في حركة التحرر الوطني المتصاعدة قد ساعدت على هذا التأثير المباشر.

أما بالنسبة للاتجاه الثاني فهو يتمثل بالنظريات والأفكار للعناصر المحافظة التي غالباً ما كانت تنطلق من مواقع رجعية لا تتناسب نهائياً مع الأفكار الإنسانية للحضارة البشرية، وكانت هذه العناصر تُصرُّ، على أن الأُقصوصة والقصة والرواية وغيرها من الفنون الأدبية في شكلها المعاصر تقوم بشكلٍ أساسي على أساس التراث العربي القديم الذي ساد وازدهر في مرحلة ما قبل الانحطاط ولكن، ومع الأخذ بعين الاعتبار درجة الازدهار، الذي وصلت إليه الحضارة العربية في القرون الوسطى، ومرور فترة طويلة وعريضة حلَّت فيها المصائب الكثيرة على كاهل الثقافة العربية من انحطاط ذاتي وتخريب وتدمير استعماري، نجد أن الفنون الأدبية تتعارض إلى حدٍّ بعيدٍ من حيث الشكل والمضمون والأسلوب والأسس الأدبية مع الفنون الأدبية في الأدب العربي القديم، وبشكلٍ خاصٍّ مع المقامة العربية القديمة وحكايات «ألف ليلة وليلة» وغيرها.

ولقد استمر الصراع الحاد بين المحافظين من جهة والمجددين التقدميين من جهة أخرى مُدَّة طويلة، حتى إننا نجد بعض الأثر لهذا الصراع في وقتنا الحاضر، على مستوى الوطن العربي بأكمله، ويشبه هذا الصراع ذلك النضال العنيف الذي قاده الكُتَّاب التقدميون السوفييت بعد قيام الثورة الاشتراكية، والذي استمر في الأدب السوفييتي حتى نهاية العشرينات تقريباً، وتناول الباحث الأدبي سامي

الكيالي هذا الموضوع وقال بخصوصه: «في الثلاثينات أصبحنا نشعر بأننا ممثلون شرعيون للاتجاه الجديد في الأدب والذي يمتاز عن القديم بالكثير، وشعرنا بأننا نحن ـ أبناء هذا الجيل المتفتح والمثقف ندرك جيداً الأهداف والمهام المطروحة أمام الأدب، إن جيلنا من الكتاب لم يسجل بعد نتاجات أدبية عالمية، كما نحلم بها، وبغضِّ النظر عن هذا فإن جيلنا من الكتاب قد تحرر ليس من التضخيم والاهتمام بالشكل والمحسنات البديعية فحسب، بل أصبح أقرب إلى الحياة والواقع المعقول[78]».

أما بالنسبة لفؤاد الشايب الذي يعتبر من الكتاب الأوائل في الوطن العربي في مجال القصة القصيرة فقد كتب يقول عن مسألة التأثر بالآداب الأجنبية: «إننا لا نستطيع نحن الجيل الجديد، والأول من كتاب القصة القصيرة في الأدب العربي السوري ـ الافتخار بمؤلفاتنا الأدبية، وإنني أنتمي إلى ذاك الجيل الذي أحب القراءة، أكثر من الكتابة، إننا لا نفتخر بأدبنا، ولكننا نفتخر باندفاعنا للقراءة، ففي البداية قرأنا الآداب الأُسطورية، والمأثورات المصرية والهندية... وإننا أشبعنا فهمنا الأدبي بقراءتنا «رسالة عن الملائكة»، «الكوميديا الإلهية»، وقرأنا شكسبير وراسين وكورنيل قبل أن نجرأ على قراءة فولتير وروسو وفرانس وموباسان، وهل كان من الممكن أن يقرأ الإنسان نتاجات غوركي قبل أن يطلع على ما كتبه دوستويفسكي؟ وهل من الممكن أن لا نقرأ تولستوي وتورغنيف وبوشكين؟ وهل كان من الممكن أن يباشر الكاتب العربي بكتابة الأقصوصة العربية دون أن يتعرف إلى تاريخ هذا النمط الأدبي في الآداب العالمية؟».

ومن خلال دراسة الأدب العربي القديم ومقارنته بالأدب العربي المعاصر يجد الباحث أن بينهما، هوةً سحيقةً غير واضحة الأطراف، وعلى الرَّغم من ذلك فإن أدبنا العربي المعاصر بجميع فنونه ومذاهبه ـ حسب رأي الكثير من النقاد ـ لم

[78] سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر، دمشق 1957، ص53.

obeikandl.com

يبلغ المستوى المطلوب، ولم تصل القصة والرواية والمسرحية إلى درجة تقترب فيها من الأدب العالمي ـ صاحب التجربة الطويلة.

لقد اتضح لنا ذلك الخطأ الفادح، الذي ارتكبه بعض النقاد المحافظين إذ نادوا بشعارات «أكل الدهر عليها وشرب» وفقدت محتواها، وقيمتها لعدم نفعها وصلاحيتها، واتضح أنه من غير الصحيح كلياً أن ينحصر التطور الأدبي المعاصر ضمن حدود الأدب العربي القديم وحده، وهذا يمثل التقوقع على النفس، وبناء جدار العزلة بيننا وبين الحضارة والثقافة العالميتين وبكلمة: كان هؤلاء لا يريدون أن يستفيدوا من الثروة الأدبية العالمية وأن لا يفيدوا أيضاً بما ينتجه كُتَّابنا ومُفكرينا.

ومهما يكن هناك من نقاشات وآراء، فإن الواقع في الأدب العربي المعاصر يثبت وبشكلٍ قاطعٍ صحة الاتجاه الأول، إذ أنه بواسطة الاستفادة من الآداب الأجنبية، وتفتح عقول كتابنا تمَّ إنجاز العديد من الأعمال الأدبية الهامة في الخمسينات والستينات من قرننا، وهذه النتاجات جديرة بأن تسترعي اهتمام القُراء لأنَّها تشكل خطوةً هامةً في تاريخ أدبنا المعاصر.

وتَجِبُ الإشارة إلى أن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية، التي مرَّتَ بها الأقطار العربية في الربع الثاني من القرن العشرين كانت تقتضي أن يستفيد المواطن العربي عامة والشباب خاصة من التجارب الثقافية لكافة الشُّعوب من أجل تطوير معرفته، وهل كان بإمكان أي ناقدٍ أو محللٍ أدبي أن يقول بأن كُتابنا، قادرون لوحدهم، وبمعزل عن الحَضارة والثقافة العالميتين أن يصنعوا أدباً رفيعاً؟. ولقد أكد المستشرق السوفييتي الأكاديمي كراتشوفسكي إذ كتب يقول: «بفضل الكتاب على اختلاف مستوياتهم ومراكزهم، فإن تاريخ الأدب العربي المعاصر يرتبط وبشكلٍ وثيقٍ مع تاريخ التأثير الأدبي الأوروبي[79]»..

ويُبرز هذا بوضوح من خِلال الاتجاهات الثلاثة التالية إلى تتعايش في الأدب

[79] كراتشوفسكي، المختارات، الجزء الثالث، ص64 (باللغة الروسية).

obeikandl.com

العربي بشكلٍ أو بآخر، يحتدم الصراع أحياناً، وينشط بعضها على حساب الآخر أحياناً أخرى.

1. الاحتجاج على كل ما هو جَديد، والطموح إلى البقاء ضمن الأُطر القديمة.

2. التقليد السطحي للمُثل الغربية وأفكارها، مع الاستفادة من ما هو من التراث العربي القديم.

3. المحاولة لاستصلاح البذور الجيدة في الأدب العربي القديم على أسس صحيحة، وعلى أساس الحصيلة الثقافية العالمية.

ولقد استمرت هذه الاتجاهات أو الأشكال الثلاثة ونشطت بصورة متوازية كما تجب الإشارة إلى أن هذا التقويم ينطبق على فترة العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين لأن مستوى الوعي الاجتماعي في تلك الفترة قد انعكس مباشرة على الحياة الأدبية، ولكن هذه الاتجاهات قد تطورت فيما بعد، لتترك الطابع العفوي، وتتخذ اتجاهات سياسية واضحة المعالم، وقد تبلورت بشكلٍ أساسي في اتجاهين أساسيين، وخاصة بعد ذلك المد التحرري الذي حصل في العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية، والذي أثَّرَ بدوره على تقليص الاتجاه المحافظ تقليصاً مُلاحظاً، وهذا لا يعني بأي شكلٍ أنه لا يوجد أُناس كُتَّاب حتى الوقت الحاضر ما زالوا يقبعون في عوالم الأدب المحافظ، ويتقوقعون ضمن أطر شعارات أثبت الزمن فشلها.

التأثير المتبادل:

ومن الجدير بالذكر أن الأدب العربي القديم قد لقي اهتماماً كبيراً من جانب كُتاب العالم، واستفاد الكُتاب الكبار من بعض ميزاته، فطوروا نتاجاتهم حسب مُتطلبات الوقت المعاصر آخذين ما يجب أخذه من الآداب القديمة إغريقية كانت، أو عربية، أو هندية، أو فارسية، وحول هذا يقول غوستاف لوبون: «إن العرب هم الذين ابتدعوا فنَّ روايات الفروسية، ويشهد التاريخ على عظمة

obeikandl.com

«رسالة الغفران» التي ألفها أبو العلاء المعري، وعلى أنَّها قد سبقت الكوميديا الإلهية لدانتي بثلاثة قرون، وللباحثين موازنات دراسية بين القصتين تثبت الشبه بينهما في المعالم والاتجاهات[80]».

ويقول فولتير أنه لم يزاول فن القصة إلا بعد أن قرأ «ألف ليلة وليلة» أربع عشرة مرة، وتمنى ستندال أن يمحو الله من ذاكرته «ألف ليلة وليلة» حتى يعيد قراءتها من جديد فيستعيد لذته، وكذلك غوته، الذي تأثر بالقصص الشرقي إذ ألف ديوان «الشرق والغرب» مستمداً بعض موضوعاته من التراث العربي[81].

وعندما نتكلم عن العلاقات المتبادلة بين الأدب العربي والآداب الأجنبية، ونبين المؤثرات المشتركة لا بد لنا من أن نشير إلى نشاط الرابطة الأدبية التي شكلها الأدباء السوريون واللبنانيون في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تأسست في أعقاب هجرة العديد من الكتاب السوريين واللبنانيين هرباً من ضغط الحكم العثماني، فألفوا هناك رابطةً أدبيةً استوعبت نشاط الأدباء العرب الموجودين في أمريكا وأوروبا، فحافظ هؤلاء الأدباء على اتصالهم بالأدب العربي، وساهموا بقسط لا بأس به في تطوير مذهب القصة الحديثة، وأسس أمين الريحاني أحد العناصر النشيطة في هذه الرابطة مذهباً أساسياً للمدرسة الأدبية السورية ـ الأمريكية وعلى رأس هذه الجماعة كان يقف الأديب اللبناني المعروف جبران خليل جبران ـ صاحب التأثير الفكري عليهم جميعاً.

ولو كانت ظروف الاتصال بين هذه الجماعة من الكتاب في المهجر وبين الوطن متوفرةً وجيدةً لكان تأثير هذه الرابطة وفعاليتها أكثر بكثير مما وصلت إليه، وقد كتب كراتشوفسكي في هذا المجال: «إن تأثير أمين الريحاني وجبران خليل جبران وفيما بعد ميخائيل نعيمة لعظيم جداً على الأدب العربي المعاصر، ولقد نشرت أكثر نتاجات الريحاني في سورية، بينما نشرت نتاجات جبران في

[80] محمود تيمور، الأدب الهادف، القاهرة 1959، ص148.

[81] نفس المرجع السابق، ص149.

مصر، ولكن تأثيرهما عم جميع البلدان العربية حتى البعيدة منها أمثال الحجاز وتونس وغيرهما[82]».

وقدمت سورية ولبنان للبلدان العربية الأخرى خدمةً جليةً في مجال الرواية التاريخية، وأخصَّ بالذكر نتاجات سليم البستاني «زنوبيا» 1871 و«بدور» و«الهيام في فتوح الشام» (1874).

ولقد أشارت الباحثة السوفييتية اكباروفا إلى هذه الناحية إذ قالت: «إن الأدب الأوروبي قد أثر تأثيراً فعالاً على تطور الرواية التاريخية في الوطن العربي، ولوحظ هذا التأثير بشكلٍ كبيرٍ في النتاجات الأولى لسليم البستاني، وإن هذا التأثير قد حدث من خلال الترجمات التي جرت خلال السنوات العديدة للأعمال المسرحية والروائية للكتاب الغربيين»، وهكذا كان على أعلام الأدب العربي المعاصر، الذي نشأ وترعرع على تلك التربة، التي امتدت فيه جذور الأدب العربي في القرون الوسطى، ولكن هذه القرون الطويلة، التي حالت بيننا وبين أدب مرحلة الازدهار قد عطلت عمل القسط الأكبر من جذور هذه الشجرة، وجعلتها عاجزة عن أن تقوم بوظائفها، ولذلك نجد أن هذه الفروع والأغصان، التي برزت على هذه الجذور من جديد كانت بمثابة غرسات هجينة ضعيفة تحتاج إلى العناية الدائمة لتعطي في المستقبل ثمراً جديداً يتناسب وذوق الإنسان المعاصر، ولذلك كان على أدبائنا الشباب أن يستفيدوا من المحيط الخارجي ومن التجربة الكبرى والغنية للأدب العالمي، وبشكلٍ خاصٍّ من تجربة الأدب الروسي ـ السوفييتي، وقد قال الناقد المصري أحمد البديني بهذا الخصوص: «إن الأدب العربي الواقعي المعاصر مدين في نتيجة تقدمه وازدهاره إلى الكتاب الروس العظام، وإننا بحاجة إلى الاستعانة بأدب رسخ أسسه مكسيم غوركي، وأراد من الأدب أن يكون فناً موجهاً بالدرجة الأولى لتمجيد الإنسان، والثقة في قواه العُظمى والخلَّاقة، ويجب على الأدب أن يعكس العالم الواقعي، بما فيه

[82] كرتشكوفسكي، يو، المؤلفات المختارة، الجزء 3، ص94.

obeikandl.com

من اضطهاد وقتل واغتصاب[83]». كما أضاف محرر جريدة «التحرير السورية» في هذا المجال: «بعد أن تعرف العرب على الأدب الروسي، وقفوا مبتهلين أمام عظمته واتساعه، فقاموا بترجمة بعض المؤلفات إلى اللغة العربية، ونال بوشكين وتولستوي وغوركي إعجاب القراء في أكثر البلدان العربية كما نالوا شهرةً واسعةً، كشهرة المتنبي والجاحظ وابن المقفع، وأصبح من المعروف للقراء العرب أسماء العديد من الكتاب والشعراء الروس والسوفييت أمثال مایاكوفسكي، استروفسكي، واهرنبورغ[84]»، ومن خلال هذه المقولات وغيرها، وبالإضافة إلى التحليل الأدبي الذي سنتعرض له فيما بعد يتضح أن العلاقة الأدبية بين الأدب العربي من جهة، والأدب الروسي السوفييتي من جهة ثانية تتمتَّن باستمرار، ويزداد التأثير المتبادل، وتبادل الخبرة بما فيه مصلحة تطور الأدبين والحضارة الإنسانية عامة.

[83] النثر المصري المعاصر، موسكو 1961، ص 80 (باللغة الروسية).

[84] نجمة الشرق 1958، العدد 3، ص146.

obeikandl.com